جرعة زائدة

من الغموض والغرابة.. والمفاجآت



م. عبدالوهاب السيد الرفاعي





مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب



كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

جرعة زائدة

عبد الوهاب السيد الرفاعي

تنويه

يسألني القراء باستمرار ودون توقف عن مدى واقعية القصص التي أكتبها.. ولهؤلاء الأعزاء أقول: أعتذر بشدة عن الإجابة لأسباب لا مجال لذكرها.

كلمة شكر

إلى القارئ العزيز (مأمون هشام محمد عبدالله)
من المملكة الأردنية الهاشمية الشقيقة
على اختياره عنوان هذه المجموعة القصصية.

خطأ شائع.. يقع فيه القارئ

عزيزي القارئ..

طوال مسيرتي الأدبية المتواضعة التي تجاوزت الـ20 عاما.. والتي قدمتُ خلالها حوالي 23 إصداراً أدبياً.. كانت أعمالي تواجهُ بعض الانتقادات.. وهذا أمر طبيعي جداً حدث -وما زال يحدث- مع كل كاتب من دون استثناء مهما علا شأنه.. فكنتُ أستفيد كثيراً وأتعلم من بعض الأخطاء التي لم أكن لأنتبه لها لولا ملاحظاتكم التي تصلني عبر وسائل التواصل الاجتماعي.. وهذا ما جعلني أحرص دوماً على متابعة أي نقد موضوعي يوجّه إلى كتاباتي المتواضعة.. في حين لم أكن ألتفتُ إلى أي نقد انطباعي.. فالنقد الانطباعي يرتبط بالذوق الشخصي.. إذ لا يمكن مثلاً لقارئ لا يحب قصص الغموض أن تعجبه مؤلفاتي.. إنها فقط مسألة أذواق.

ولكن.. كانت هناك بعض الانتقادات في غير محلها أيضاً.. والتي تكررت كثيراً حتى أصبحت خطأ شائعاً وقع فيه العديد من القراء.. إذ أجدُ من أُعجبَ كثيراً بإصداري (متحف الأرواح) و(المعقّد).. أو سلسلة (الأبعاد المجهولة) و(حالات نادرة).. لكنه انتقدَ المجموعات القصصية مثل (17) و(قصص لا يسمحون لي بنشرها) بقسوة.. وحين تواصلتُ مع هؤلاء القراء الأعزاء لأعرفَ أين الخلل بالضبط.. اكتشفتُ أنهم لا يحبون القصص القصيرة.. أي أنها مسألة ذوق شخصي ونقد انطباعي فحسب.. إنهم يحبون الروايات أكثر.. علماً بأن سلسلة (الأبعاد المجهولة) و(حالات نادرة) أقرب إلى الروايات كون كل منها تحتوي على شخصية مركزية تدور حولها جميع القصص.. على عكس القصص القصيرة والتي تعتبر كل قصة منها عالما في حد ذاته.

فالقصة القصيرة تركز عادة على شخصية واحدة في موقف واحد.. وتعتمد على قلة عدد الشخصيات واختصار الأحداث ومحاور الاهتمام.. وتتناول حادثة رئيسية واحدة أغلب الأحيان.. على عكس الروايات التي تركز على الشخصية وعمقها وتقلباتها بقدر تركيزها على الأحداث.. مما يجعلك تتعلق بالبطل من دون أن تشعر.

لم يكن هذا الخطأ الشائع الوحيد.. فهناك خطأ آخر وقع فيه الكثيرون من القراء الأعزاء.. إذ أستقبلُ أحياناً رسالة يخبرني فيها القارئ أن لا جديد فيما أكتب.. وأن كتاباتي لا تتجاوز القصص البوليسية أو قصص الرعب.. إلخ.. وهنا أتوقف لأوضح نقطة هامة.. أن أنواع القصص عموماً 6 فحسب.. (دراما) و(خيال علمي) و(خيال حر) و(بوليسية) و(رعب) و(مغامرات).. وأية قصة في العالم تندرج تحتها.. حتى القصص التاريخية مثلاً.. علماً بأنني كتبتُ في جميع هذه الأنواع.. لكن بعض القراء الأعزاء يرفضون تكرار حتى الفكرة الرئيسية!!.. وبهذا المنطق نستطيع أن نقول أن الكاتبة العظيمة (أجاثا كريستي) التي تخصصت في القصص البوليسية.. كان يفترض أن تتوقف بعد إصدارها الأول.. لأن قصصها التالية كانت بوليسية أيضا!!.. أو حين يكتب أي مؤلف قصة عن سرقة بنك (على سبيل المثال).. فهذا يعني أنه يجب ألا يكتب أبداً قصة أخرى عن سرقة بنوك وإلا ستعتبر مكررة!!.. وهذا مستحيل.. وإلا لن نجد سوى قصة حب واحدة في التاريخ.. وأي قصة حب بعد ذلك ستكون مكررة!!.

وهذا غير صحيح بالطبع.. فالأفكار الرئيسية لا بد وأن تتكرر.. لكن التفاصيل هي التي يفترض أن تختلف.. ولنأخذ مثالاً على ذلك.. كم عدد الأفلام التي ناقشت فكرة غزو فضائي من كوكب آخر؟!.. كثيرة جداً بالطبع.. لكن كل منها يناقش الفكرة من وجهة نظر مختلفة وبتفاصيل

مختلفة.. وهذا ما يصنعه أي كاتب في العالم.. وهذا ما أحاول فعله باستمرار.

في الختام.. أؤكد دوماً أنني أبذل كل جهدي لتقديم ما يرضي القارئ العزيز.. آملاً أن تستمتعوا بهذه المجموعة القصصية الجديدة.. والتي حرصتُ أن تكون خفيفة سلسة متمنّياً أن يتسنى لكم إنهاؤها في جلسة واحدة.

عبد الوهاب السيد الرفاعي

ماذا يحدثُ هنا؟!.

كل شيء جاهز الآن.. لقد كنت أراقب تلك العمارة السكنية منذ شهر تقريباً.. منتظرا سفر أحد سكانها مع أفراد عائلته في إجازتهم الصيفية كي أنتهز الفرصة وأسطو على ممتلكاتهم.. وها قد حانت الفرصة.. لقد قمتُ بتحرياتي الخاصة جيداً.. وعلمتُ أن صاحب الشقة من جنسية عربية.. ويشغل منصباً هاماً في إحدى الشركات.. وله عائلة صغيرة تبدو على أفرادها ملامح الحياة الكريمة.. مما يرجحُ وجود شيءٍ يستحق السرقة في شقتهم.. أو هذا ما أتمناه على الأقل.. إنها المرة الأولى التي أقوم فيها بعملية سرقة في هذه المنطقة.. فمن المهم تغيير مكان أنشطتي غير القانونية كي لا يكثف رجال الشرطة تحرياتهم في منطقة محددة.. مما سيصعّب عملية القبض عليّ.

إنها طبيعة حياتي.. فقد اعتدتُ السرقة منذ عدة سنوات.. بعد أن فشلتُ في كل شيء آخر في حياتي للأسف.. خاصة وأنني أكرهُ أن أكون من هؤلاء الذين يبحثون عن وظيفة براتب شهري.. أرى هذا قمة البؤس.. إذ سأبدو حينها مثل الثور المربوط في ساقية!!.. وستكون حياتي عبارة عن روتين قاتل أكرهه.. أما السرقات.. فرغم مخاطرها.. إلا أنها منحتني مبالغَ كبيرة جعلتني أقطن في شقة يستحيل أن أحصل عليها براتب وظيفي.. والغريب أنَّ سرقاتي تلك ساعدتني على امتلاك ثبات أعصاب قد يحسدني عليه البعض.. حتى بتُّ لا أشعر بأي خوف!!.

بكل تأكيد آمل أن أتوقف عن السرقة يوماً ما.. ربما أنتظر اللحظة المناسبة فحسب.. أن أضرب ضربة العمر وأسرق مبلغاً هائلاً يجعلني بأمان مدى الحياة.. هذا الأمان الذي بحثتُ عنه كثيراً من دون جدوى.. ومنذ طفولتي ربما.. بسبب أبي الذي تزوج 3 نساء وأنجبَ من كل منهن كومة أبناء.. ثم تركنا نواجه العالم دون اهتمام أو رعاية.. فكانت النتيجة المتوقعة أن يفشل معظمنا في دراسته.. لنفترق تدريجياً بعد وفاة والديّ.. وينشغل كل منا في حياته الخاصة.. حتى أنني لم أرَ أو أقابل أيّاً من أشقائي منذ سنوات.. وأصبح وقتي متوزّعاً بين التخطيط للسرقات.. وتنفيذها.. مع بعض العلاقات العاطفية العابرة التي تتجه دوماً إلى طريق مسدود.. بالطبع.. فشخص مثلي يستحيل أن يتزوج أو يعيش حياة مستقرة.

نعود من حيث بدأت القصة.. كنت أقول أنني أعددتُ العدة لسرقة تلك الشقة بعد سفر أفرادها منذ يومين فحسب.. حين رأيتهم يقومون بوضع حقائبهم في سيارة كبيرة يقودها أحد معارفهم ليأخذهم إلى المطار.. ولحسن الحظ أن مراقبتي الطويلة وتحرّياتي المكثفة جعلتني أعرف مكان شقتهم بالضبط.. بل وأعرف كل شيء عن أصحاب العمارة.. بعد أن دفعتُ مبلغاً من المال للحارس كي يمنحني البيانات التي طلبتُها.. بالطبع فعلتُ هذا كلّه متنكراً.. من السهل على الرجل أن يتنكر.. لحية مزيفة.. نظارات.. قبعة.. إلخ.

كانت الساعة تشير إلى الواحدة فجراً.. حين خرجتُ من شقتي مرتدياً ثياباً رياضية سوداء مع حقيبة صغيرة تحتوي كل ما سأحتاجه.. والواقع أن السينما قدمت لنا أدق صورة ممكنة للصوص.. إذ لم يعد يخفى على أحد أدوات السرقة التي يستخدمها اللص عادة.. فها أنا أضع حقيبتي اليدوية السوداء في صندوق سيارتي.. ثم أركب السيارة وأقودها متجهاً إلى العمارة السكنية إياها.. والشوارع شبه خالية.. لم أكن أشعر بأي توتر عصبي كما ذكرت.. فقد اعتدتُ الأمر.. وأعرف جيداً الاحتياطات التي يجب اتخاذها.

وصلتُ إلى العمارة السكنية وركنتُ سيارتي بمسافة بعيدة نسبياً.. ثم اتجهتُ سيراً إلى المدخل

الرئيسي.. أعتقد أن هناك كاميرا مراقبة عند المدخل.. لكن هذا لا يهم.. إنني أرتدي وسائل التنكر التي قابلتُ بها الحارس.. وهذا ما يجعلني أسير بشيء من الجرأة.. وأستقلُّ المصعد متجهاً إلى الدور السادس.. صاعداً إلى الشقة المطلوبة.. لن أتطرق إلى عملية فتح الباب.. فهذا الأمر لم يعد يشكل أي عائق بالنسبة للص محترف مثلي.

لحظات قليلة قبل أن أجد نفسي داخل الشقة.. لقد تركوا بعض الأنوار مضاءة.. هذا جيد.. ألقي نظرة سريعة حولي.. إنها شقة أنيقة جداً.. أتمنى أن أعثر على أشياء تستحق السرقة وألاّ يذهب تعبي سدىً.. أقول هذا لنفسي وأنا أمشي بخطوات بطيئة حذرة متجهاً إلى إحدى الغرف التي اتّضحَ أنها غرفة النوم.. ثم.. ما إن وطأت قدمي الغرفة.. حتى سمعتُ حواراً ما.. وفتاة تبكي فجأة.. إنها في الغرفة المقابلة.. كيف يحدث هذا؟!.. لم أكن أتوقع وجود أحد في الشقة!!.. يفترض أنها خالية تماماً!!.. تجمدتُ في مكاني وتشنجتْ عضلاتي كلّها.. ثم سمعتُ الفتاة تقول بألم وبصوت مرتفع:

-لم أظن يوماً أنك ستنسى وعودك وتغدر بي بهذه الطريقة!!.

ليرد عليها صوتٌ ذكوريٌّ هادئٌ:

- لا أسميه غدراً.. إنك لا تعرفين كيف تحافظين عليّ.. لقد حاولتُ كثيراً مد الجسور بيننا.. حاولتُ التفاهم معك.. لكنك تتعاملين معي بكبرياء.. فأنتِ لا تحترمين عملي ولا تحترمين عائلتي.. ولا تحبين حتى طباعي.. إنك تطلبين مني باستمرار أن أتغير.. في حين لا تقبلين أي نقد يوجَّه إليكِ.. وكأنك خالية من العيوب.. من الطبيعي أن أبتعد تدريجياً وأبحث عن حب جديد.. عن فتاة تقدّر كل ما أبذله من أجلها!!.

لترد الفتاة بعصبية:

-هذا لا يبرر خيانتك.. لا يبررها أبداً!!.. كان بإمكانك إنهاء زواجنا لتمضي في حال سبيلك!!.

فيقول بحزم:

- أنهي الزواج وأنتِ حامل؟!.. مستحيل.. ما ذنب الطفل الذي سيولد ويجد نفسه في أسرة مفككة؟!!.

تصرخ به بعصبية:

-وما ذنب الطفل كي يأتي إلى هذا العالم ويكون والده شخصاً خائناً حقيراً مثلك؟!.

صوت صفعة قوية تبعتها شهقة من الفتاة.. ثم خطوات سريعة متجهة إلى الباب وكأن أحدهم سيخرج ليجدني أمامه!!.. لم تكن تلك الثواني القليلة كافية للهرب من الشقة.. ولم يكن أمامي سوى دخول غرفة النوم والاختباء تحت السرير.. هنا.. يجب أن أعترف أنها المرة الأولى التي أفقد فيها أعصابي وأشعر فيها بهذا التوتر الغريب منذ زمن بعيد.. ربما لأنني لم أتعرض لموقف كهذا من قبل!!.

يخرج الرجل من تلك الغرفة متجهاً إلى غرفة النوم، حيث حبستُ هناك أنفاسي تماماً كي لا يشعر بوجودي.. في حين تدخل خلفه الفتاة وهي تصرخ به وتشتمه.. وتعده بأن يدفعَ ثمن ضربه لها.. لكنه دفعها بعنف لتقع على السرير.. حينها.. فتحت الفتاة أحد أدراج (الكومودينو).. وأخرجت مسدساً على ما يبدو.. إذ سمعتُها تهدد الرجل وتطلب منه الابتعاد والخروج وإلا أطلقت النار!!..

المشكلة أن الرجل لم يخشَ تهديدها.. بل أطلق ضحكة ساخرة وهو يدَّعي أنها عاجزة عن قتل دجاجة.. فكيف ستقتله؟!.. ثم أخبرها بطريقة استفزازية واضحة أنه سيذهب إلى الغرفة الأخرى ليأخذ المال الموجود في الخزينة!!!.. وسيخرج من هنا ليمضي ليلتهُ عند عشيقته.

الفتاة تشتاط غضباً.. وتتبعه إلى الغرفة الأخرى وهي تصرخ به وتطلب منه أن يمنحها الرقم السري للخزينة.. وتهدّد بأنها لن تسمح له بأخذ هذا المبلغ الهائل لوحده.. السجال يستمر بينهما بعض الوقت.. قبل أن أسمع صوت إطلاق النار.. ليعم الهدوء المكان!!.. وأسمع بعد لحظات صوت بكاء ونحيب الفتاة!!.. هنا فقدتُ السيطرة على أعصابي.. ونهضتُ من تحت السرير متجهاً بسرعة البرق إلى الباب لأخرج من الشقة أخيراً!!.. لقد شهدتُ جريمة قتل.. لكني لا أجرؤ على الإبلاغ عنها.. فبأية حجة سأبرر وجودي في مكان الجريمة؟!.. ثم.. كيف يتواجد هذا الرجل مع الفتاة في الشقة أصلا رغم سفر أصحابها؟!.. لا أملك الإجابة.

أتذكر أنني قدتُ سيارتي بتوتر شديد وبذهن مشتت.. إلى أن وصلتُ إلى شقتي.. فجلستُ هناك محاولاً التقاط أنفاسي.. ولا أعرف كم مرَّ من الوقت قبل أن أتمكن من السيطرة على أعصابي.. لأفكر بتلك التجربة المروعة وما شهدتهُ خلالها لحظة بلحظة.. و.. أتذكر كلام الرجل عن الأموال الموجودة في الخزينة في الغرفة الثانية.. لكن.. لماذا لم يُودع صاحب الشقة أمواله في البنك مثلاً؟!.. هل يمارس نشاطاً غير قانوني؟!.. وقبل كل شيء.. من هما هذان الشاب والفتاة؟!.. لم يكن يبدو صاحب الشقة كبيراً في السن ليكون له بنت أو ولد بهذا العمر!!.. هل يعقل أن أكون قد دخلتُ الشقة الخطأ؟!.. مستحيل.. لقد كنتُ شديد الدقة والحذر.. أعتقد أنَّ ذلك الحارس الأحمق أخطأ في رقم الشقة!!.. فهذا ليس مستبعداً.. لقد كان كبيراً في السن.. وهناك احتمال لا بأس به أن ذاكرته ليست على ما يرام.. أو ربما كذب عليَّ لغرض ما؟!.

لم تعد تلك التساؤلات مهمة الآن.. فقد وقعتُ بالصدفة على صيد ثمين للغاية!!.. هناك أموال في تلك الشقة.. وقد سمعتُ الفتاة تقول أنها لا تعرف الرقم السري للخزينة.. ولا أظنها اعتادت القتل.. أي أنها -على الأرجح- هربت من شدة الخوف بعد أن ارتكبت جريمتها.. ولا أعلم إن كان أحدهم اكتشفَ وجود الجريمة أصلاً!!.. هل سمع الجيران صوت إطلاق النار؟!.. أو اعترفت الفتاة بجريمتها؟!.. الطريقة الوحيدة للتأكد أن أذهب إلى الشقة مساء الغد.. فأشعة الشمس بدأت تخترق ستائر غرفتي.. ولم يعد بالإمكان الخروج الآن والتستر بالظلام.

في اليوم التالي.. كنتُ قد عقدتُ العزم على الذهاب إلى العمارة السكنية ذاتها واستكشاف الحي أولا.. كي أتأكد أنَّ أحداً لم يكتشف وجود الجريمة بعد.. لأستولي بعدها على المال.. لكن.. عند وصولي.. بدا لي المكان هادئاً تماماً.. لحسن الحظ أنني كنت جاهزاً لاقتحام الشقة.. رغم التوتر الشديد الذي ظل مسيطراً عليَّ.. عالماً أنني سأجد هناك جثة على الأرجح.. وأنني يجب أن أكون مستعداً لما سأراه.. فأنا لم أكن قريباً من أية جثث يوماً ما.

دخلتُ العمارة السكنية مستخدماً وسائل التنكر ذاتها.. وبالطبع لم أشأ زيارة الحارس والتأكد منه بخصوص رقم الشقة.. لم يعد هذا مهماً الآن.. لأنني هذه المرة أعرف ما أريد.. اقتحام شقة قد أجدُ فيها ما يغنيني عن السرقة طوال العمر.. أتمنى أن تكون هذه عمليتي الأخيرة.. هكذا ظللتُ أردد لنفسي وأنا أصعد إلى الطابق السادس متجهاً إلى الشقة ذاتها.. حيث عبثتُ قليلاً في القفل وفتحته بخبرتي.. لأدخل بالطريقة نفسها.. وبخطوات بطيئة حذرة.. هذه المرة سأتجه إلى تلك الغرفة مباشرة.. لكن.. ما إن دخلتُ.. حتى وجدتُ المكان خالياً تماماً!!!.. ظللتُ مشدوهاً ألتفتُ حولي للحظات.. أتساءل.. هل يعقل أنَّ الفتاة أتت لاحقاً وأخذت جثة الرجل لتخفيها في مكان

ما؟!.. لا يمكن.. ليس هذا بالأمر اليسير.

جلستُ أفكر وأنا ألتفتُ حولي بقلق من دون أن أفهم ما يحدثُ هنا.. ربما عليَّ أن أنسى كل شيء وأبحث عن الخزينة فحسب لأخرج بعدها سريعاً.. إنها غرفة مكتب كبيرة نسبياً.. تحتوي على مكتبة تحتل جداراً كاملاً وتمتلئ بالكتب.. أين الخزينة يا ترى؟!.. هل قام صاحب الشقة بإخفائها خلف الجدار مثلاً؟!.. أم خلف الكتب؟!.

بدا منظري مضحكاً إلى حد ما وأنا أتحسس الجدار.. ثم أضع يدي على الكتب وأبحث خلفها من دون أن أنتبه لمرور الوقت.. قبل أن أسمع أحدهم يهم بفتح باب الشقة.. لم أجد مكاناً أختبئ فيه في غرفة المكتب هذه.. لذا خرجتُ وذهبت بخطوات سريعة إلى غرفة النوم ذاتها واختبأت في المكان نفسه.. تحتَ الفراش.. وأنا أتساءل بقلب يخفق بعنف عن هوية الزائر هذه المرة!!.. لقد تحولت الشقة فجأة إلى مزار!!!.

كنتُ أكتم أنفاسي بكل قوتي.. أحاول أن أسترق السمع.. ليتبيَّن أنهما شاب وفتاة.. حيث دخلا متجهين إلى الغرفة الأخرى!!.. لم يطل الأمر كثيراً قبل أن أسمع صوتاً أنثوياً:

-لم أظن يوماً أنك ستنسى وعودك وتغدر بي بهذه الطريقة!!.

ليرد عليها صوتٌ ذكوريٌّ هادئ:

- لا أسميه غدراً.. إنك لا تعرفين كيف تحافظينَ عليّ.. لقد حاولتُ كثيراً مد الجسور بيننا.. حاولتُ التفاهم معك.. لكنك تتعاملين معي بكبرياء.. فأنتِ لا تحترمين عملي ولا تحترمين عائلتي.. ولا تحبين حتى طباعي.. إنك تطلبين مني باستمرار أن أتغير.. في حين لا تقبلينَ أي نقد يوجَّه لك.. وكأنك خالية من العيوب.. من الطبيعي أن أبتعد تدريجياً وأبحث عن حب جديد.. عن فتاة تقدّر كل ما أبذله من أجلها!!.

هذا جنون!!.. هذا غير معقول!!.. ما الذي يحدث هنا؟!.. لقد سمعت الكلام نفسهُ حرفياً بالأمس.. وبصوت الشخصين نفسيهما!!.. عقلي يعمل بسرعة البرق مفكراً في هذا المستحيل الذي يحدث أمامي.. إمَّا أنها أشباح تكرر أفعالها يومياً كما نسمع ونقرأ في القصص.. أو أنني رأيتُ المستقبل حين كنتُ هنا في الأمس.. وها هو يتحقق أمامي الآن!!.. خاصة وأن الفتاة ترتدي الجوربَ نفسهُ والثياب ذاتها.. والرجل كذلك.. لا يمكن أن أنسى حذاءهُ البني بزخارفه الغريبة.. لقد كان ينتعلهُ بالأمس أيضاً!!.. ثم.. اتجها مرة أخرى إلى غرفة المكتب.. المحادثة ذاتها تتكرر.. حسناً.. بعيدا عن الاستنتاجات الماورائية هذه.. عليَّ اتخاذ القرار لأمنع جريمة قتل محتملة.. حتى لو كنت لا أفهم ما يجري.. نعم أنا لص.. لكن لا أرضى بالقتل أبداً.

المشكلة أنني لم أجد الوقت لأمنع الجريمة للأسف.. إذ سمعتُ صوت إطلاق النار.. لأخرج من مخبئي ممسكاً بالخنجر الذي أحمله معي دوماً للدفاع عن النفس ولم أستخدمه يوماً.. فلو فشلتُ في سرقة المكان ومنع جريمة القتل.. على الأقل سأفهم ما يحدث هنا.. أكرر هذا الكلام لنفسي وأنا أسير مرتجفاً متجهاً إلى باب غرفة المكتب الموارب.. حيثُ دفعته ببطء لأجد الرجل ممدداً على الأرض.. والفتاة تبكي وتنتحب وهي تكرر كلاماً قالته في الأمس أيضاً!!.

ويبدو أنها انتبهت لوجودي أخيراً.. فالتفتت تجاهي وبيدها المسدس.. لتحدث الصدمة الأكبر.. ما هذا؟!.. إنها لا تنظر إليّ.. بل تحدق في الفراغ بصمت.. في اللاشيء إن صحَّ التعبير وبجمود غريب لا يوحي بكل ما يحدث!!.. و.. لم يستغرق الأمر جزءاً من الثانية حين تملكني الرعب.. وأطلقتُ

ساقي للريح.. لأخرج من باب الشقة راكضاً كالمجنون!!.

هذه المرة لم أملك فرصة الضغط على زر طلب المصعد والانتظار كما فعلت في المرة السابقة.. فاتّجهتُ إلى الدرَج ونزلتُ منه بخطوات سريعة للغاية.. من دون أن أشعر بقدمي وأنا أنزل الدرجات واحدة تلو الأخرى.. إلى أن وصلتُ إلى باب الخروج في الدور الأرضي.. وللأسف.. لم أهرب بعيداً.. بعد أن وجدتُ الباب مقفولاً.. حيث علمتُ فيما بعد أنَّ حارس الأمن يقوم كل يوم -وقبل منتصف الليل- بقفل هذا الباب لأسباب أمنية.. وأن أي شخص يدخل أو يخرج من العمارة في وقت متأخر كهذا.. عليه استخدام المصعد فقط.

كما تذكرتُ ما هو أسوأ.. أنني تركتُ حقيبة أدوات السرقة تحت السرير بعد حالة الرعب التي انتابتني!!!.. سيتوجَّب عليَّ استخدام الدرَج مرة أخرى للصعود إلى الشقة.. ومن ثم يجب أن أستقل المصعد للنزول وللهرب.. عضضتُ على شفتي قهراً وأنا ألهث من شدة التعب.. ثم.. فوجئتُ بضجيج على درجات السلم.. لأجد بعدها بلحظات.. رجلين من سكان العمارة كما بدوا لي بثياب النوم.. أحدهما ضخم الجثة.. هجما عليَّ وشلَّا حركتي في لحظة واحدة.

لن أتحدث كثيراً عن الفوضى التي عمَّت العمارة بأكملها.. تلك الفوضى التي طالت عقلي نفسه كوني لم أفهم شيئاً مما يحدث!!.. لذا فسأقفز مباشرة إلى مكاني في التحقيق.. حين جلستُ مكبل اليدين وكل الأدلة والشهود ضدي.. أتحدث مع المحقق وأخبره بالتفاصيل كلّها.. وأنا شاحب الوجه أنظر إلى الأرض بألم.. غير مصدق أنني وقعت أخيراً في قبضة الشرطة بعد سنوات من الحذر.. ليقول المحقق ساخراً:

- قصتكَ غريبة.. إنك لص محترف.. لكنك شديد الغباء في الوقت نفسه!!.. لقد وضعتَ كل الاحتمالات في عقلك سوى أبسطها!!!.. الرجل والفتاة اللذان رأيتهما في الشقة هما في واقع الأمر ممثلان مبتدئان وزوجان في الوقت نفسه.. وكل ما رأيتهُ في المرة الأولى والثانية كان تمثيلاً فحسب!!.. لسوء حظك أنهما كانا يأتيان إلى الشقة كل يوم في مثل هذا الوقت كما أشارا في التحقيقات.. لكنك أحمقَ بالفعل.. فظننتَ أنَّ الأمر يتعلق بالأشباح وبعالم الماورائيات.

قلتُ بذهول:

- لا.. لا.. هذا مستحيل.. لم تنتبه الفتاة لوجودي رغم أنني كنتُ أمامها.. لقد كانت تحدق في الفراغ!!.. ثم ماذا عن زوجها الذي أطلقت عليه النار وتفجرت منه الدماء؟!.

قال المحقق بنبرة استهزاء واضحة:

-لأنهما ضريران.. ممثلان ضريران أيها الأحمق!!!.

سألته بعينين زائغتين:

-ضريران؟!.. زوجان ضريران؟!.. كيف؟!.

ضحك بتشفّ وهو يقول:

-لقد التقيا في أحد التجمعات الخاصة بالمكفوفين كما علمتُ منهما.. وهناك ارتبطا بعلاقة حب توَّجاها بالزواج.. خاصة وأن ميولهما متشابهة.. فكلاهما يعشق التمثيل.. وقد اختارا هذه الشقة تحديداً بعد أن استأذنتْ الشركة المنتجة من مالك الشقة لتصوير لقطات من المسلسل هناك.. فكان الزوجان يذهبان يومياً لتمثيل الدور.. ولكي يستدلا على أرجاء الشقة جيداً ويتأقلما مع

المكان نظراً لإعاقتهما البصرية.. هل عرفتَ الآن مدى حماقتك؟ !!.. أما المسدس فيحمل رصاصات فارغة من تلك التي تستخدم في السينما.. والدم الذي رأيته على قميص الممثل عبارة عن لون صناعي بالطبع.. كان الممثل يأتي إلى الشقة برفقة زوجته الممثلة مرتدياً هذا القميص.. لكنك لم ترَه لأنك كنت مختبئاً تحت السرير!!!.. لقد شعرا بأنفاسك وأنت تدخل.. ولو انتظرتَ قليلاً لوجدتهما يستفسران عن هويتكَ.. هذا ما جعل الفتاة تنظر في اتجاهك!!.. أما مَن ظننتهم الجيران.. فقد كانوا أيضاً ممثلي كومبارس.. أستأجرتْ لهم شركة الإنتاج شقة أخرى في العمارة نفسها.. إذ هرعتْ إليهم الفتاة لتخبرهم بوجود شخص في الشقة.. ولم يتطلب الأمر وقتاً كثيراً ليكشفوا أمرك.. خاصة حين سمعوا صوت خطوات سريعة على درجات السلم.. فتبعوكَ وهم يعلمون أنك متجه إلى طريق مسدود.

ظللتُ صامتاً مذهولاً وقد انعقد لساني وأنا أعيد الأحداث في ذهني.. ليقول المحقق بصرامة:

-كنتَ في طريقك لارتكاب جريمة سرقة.. ولم يوقفك شيء إلاّ غباؤك.. دعك من أن اقتحام بيوت الناس جريمة بحد ذاتها.. كما أننا سننبش في تاريخك جيداً.. من المؤكد أنكَ ارتكبتَ جرائم قبلها.. الأفضل أن تعترف.. هذا سيخفف العقوبة كثيراً.. بدلاً من أن نكتشف كل شيء بأنفسنا!!.. سأتركك لتفكر بكلامي.

قالها وهو يطلب من أحد رجال الشرطة أخذي إلى الحجز.. في حين ظلت أفكاري تائهة حتى وأنا أسير مع الشرطي.. بعد أن ظننت أنني أستبصر المستقبل أو أرى الأشباح تكرر حادثة ما.. من دون أن أفكر بأبسط التفسيرات!!.. أعتقد أنهم سيكشفون تاريخي الأسود بأكمله كما قال المحقق للتو.. كل هذا بسبب حادثة غير متوقعة أسأت تفسيرها بغباء غريب مني.. وفقدتُ بسببها تركيزي كلّهُ.. حين ظللتُ أتساءل عمّا يحدث.. في تلك الشقة!!.

تَنَمُّر ([1])

أذهبُ باستمرار إلى مقهى (ستار بكس) بمنطقة (كيفان) حتى عرفني العاملون جميعاً واعتادوا وجودي.. بل وباتوا يعرفون قهوتي المفضلة.. فيقومون بتجهيزها حالَ وصولي.. حيث أجلس هناك ساعات طويلة أنغمس خلالها في الأوراق الخاصة بسير العمل في شركتي.. وأرجوكم ألا تنخدعوا بكلمة (شركتي) هذه.. فهي ليست كيان اقتصادي عملاق كما قد يظن البعض.. إنها في واقع الأمر شركة صغيرة تدرّ عليَّ ربحاً كافياً لأعيش حياة كريمة مع أسرتي بعيداً عن التزامات الوظيفة الحكومية وتوابعها ومشاكلها.

لماذا لا أجلس في مكتبي في الشركة كي أقوم بهذا العمل؟!.. لأنني أحب أجواء المقاهي كثيراً وأشعر فيها براحة نفسية.. ولا أجد خطأ في هذا كوني أعيش بحرية مطلقة وأقود حياتي بنفسي بعيداً عن وجود مسؤول يملي عليَّ ما يريد.. نعم.. إنني إنسان مثابر جداً.. وأستطيع أن أقول أنني حققتُ كل ما أتمناه رغم سني الصغيرة.. فقد تزوجتُ الفتاة التي أحببتها.. وأنجبتُ منها طفلين جميلين.. وأسسّتُ مشروعي الخاص.. وأصبحتُ مقتدراً مادياً قريباً من الثراء.. ويجب أن أعترف أن هذه الحياة الكريمة لم تمنعني من العبث أحياناً وخوض علاقات سرية لا تعلم عنها زوجتي شيئاً بطبيعة الحال.. وهيَ من الأمور التي بات الرجال في مجتمعاتنا الشرقية يعتبرونها حقاً مكتسباً لهم!!.

تمرُ تلك الخواطر في ذهني على شكل ومضات سريعة، وأنا أتابع عملي وأحتسي قهوتي.. ثم:

-(جابر)؟!.

التفتُ لمن ينادي باسمي.. لأجد أحدهم مقبلاً نحوي مبتسماً.. نظرتُ للحظة إلى وجهه الطفولي.. وقلتُ بشيء من التردد:

-(عماد).. أليس كذلك؟!.

اتسعتْ ابتسامته وهو يمد يدهُ ليصافحني.. ثم سحب المقعد ليجلس من دون استئذان وهو يقول:

-لم أتحدث معك أو أقابلك منذ أكثر من 8 سنوات.. كيف حالك؟!.

لم أتوقع أن أراه بعد كل هذه المدة.. فقد لفظتُ هذا الشخص من حياتي ونسيتُ كل ما يتعلق بشأنه.. لذا قلتُ مغمغماً بتثاقل:

-لا بأس.. إنني بخير كما ترى.

لم يعجبهُ الرد المقتضب.. إذ قال وهو ما يزال محتفظاً بابتسامته:

-هذا كل ما لديك لتقوله عن السنوات الطويلة الماضية؟!.

هززتُ كتفي لأجيبَ بلا مبالاة:

-كل ما أستطيع قوله أن حياتي على ما يرام بعد أن حققتُ فيها كل ما سعيتُ لأجله.

ردَّ بكلمات ذات مغزى:

-بالطبع.. لقد تزوجتَ من الفتاة التي أحببتها.. وسمعتُ أيضاً أنك أسستَ شركة ناجحة.

قالها وهو ينظر إلى الأوراق الموجودة أمامي.. فتعمدتُ أن أجمعها وأضعها في رزمة واحدة وقد قررتُ مواجهته.. لأقول صراحةً من دون مجاملة:

-المعذرة يا (عماد).. أنا مشغولٌ جداً ولا يوجد لدي ما أقوله.

تغيرت ملامحهُ إلى الحسرة وهو يقول:

-ألن تقول ((حمداً لله على سلامتك)) على الأقل؟!.. مؤكد أنك على علم أنني كنتُ أزور مستشفى الطب النفسي باستمرار.. بل وكنتُ نزيلاً هناك لفترة من الزمن.. كل هذا بسببك أنتَ يا (جابر)!!.

يبدو أنه يرغب في فتح الملفات القديمة.. حسناً.. لا مفر إذاً من الرد على كلامه.. فقلتُ في المقابل وأنا أنظر إلى عينيه مباشرة:

- هناك دائماً ضحية.. المهم ألا تكون الضحية أنا!!.. هذا شعاري في الحياة.. أعلم جيداً أنني مارستُ كل أنواع (التنَمُّر) ضدك في المرحلة الثانوية.. لكن.. كنتَ صغيراً آنذاك!!.

ردَّ بغضب:

-أنا أيضاً كنتُ صغيراً أيها الوغد.. لا تعرف كمَّ العذاب الذي عشتهُ بسببك في مرحلة الدراسة الثانوية.. كنتَ تصنع مني مادة للسخرية والمزاح.. أنت وشلتك الحقيرة.. هل نسيت الضرب المبرح الذي كنتُ أتلقاه منك بين الحين والآخر؟ !!.. ماذا عن سرقتكَ لحقيبتي وتمزيق دفاتري أثناء عودتي إلى البيت؟!.. هل تذكر أيضاً حين مزقتَ ثيابي ورميتَ هاتفي النقال في المرحاض.. ثم تركتني عارياً في دورة مياه المدرسة؟!.. كان هذا أسود أيام حياتي.. لحسن الحظ أن طالباً آخر سمعني أبكي وأنقذني.. فذهبَ إلى بيته بعد نهاية الدوام المدرسي ليجلب لي ثياباً أرتديها كي أتمكن من الخروج.. لقد شكوتكم كثيراً لإدارة المدرسة.. لكن لم تكن هناك جدوى.. شخص مثلك لا ينفع معه أخذ التعهدات أو الفصل لبضعة أيام!!.

قلتُ متجاوزاً إهانتهُ:

-لقد مضت تلك الأيام عموماً.

ردَّ بحدة:

-إنك لم تتركني في حالي حتى في دراستنا الجامعية.. لسوء الحظ أنني كنتُ معك في الكلية نفسها.. لقد وقعتُ في حب زميلتنا (حنان).. وعشتُ معها قصة حب استمرت أكثر من سنتين.. هذه الفتاة كانت النقطة المضيئة الوحيدة في حياتي.. لكنك استمريتَ في ملاحقتها وغسل دماغها وتشويه صورتي أمامها إلى أن وقعَتْ في حبائلك.. لقد انهارت حياتي بسببك.. ففشلتُ في دراستي.. وأصبحتُ نزيلاً في مستشفى الطب النفسي.. و.....

قاطعته مدافعاً:

-لا تُلق الاتهامات جزافاً يا (عماد).. أولاً.. (حنان) فتاة عاقلة تتحمل مسؤولية اختياراتها.. وأنا لم أقم بتشويه سمعتك كما تقول.. بل أخبرتها بالحقيقة فحسب.. والحقيقة أنني أفضل منك بكثير.. لا تستطيع إنكار ذلك يا (عماد).. لقد كنتُ متفوقاً دراسياً عكسك أنت.. مستقراً نفسياً عكسك أنت الذي تعاني اضطرابات نفسية حادة بسبب معاملة والدك القاسية في طفولتك.. والذي كان يضربك لأتفه الأسباب.. ووالدتك المتسلطة التي لم تكن أقل سوءاً منه.. بل أن عائلتك مفككة

غارقة في مشاكل وخلافات لا تنتهي.. لا تنسى أننا في بلد صغير.. وأمور كهذه يسهل أن تنتشر بين الناس.. كما أنني أطول منك قامة وأكبر بُنية.. باختصار.. (حنان) تزوجت ممن يستحقها.. وهي ما تزال ممتنة لي كوني أنقذتُها منك.

لم يحتمل كلامي.. إذ اغرورقت عيناه بالدموع التي انحدرت منهما ببطء.. وترَك لها العنان من دون أن يحاول مسحها.. لحسن الحظ أنه يرتدي الغترة والعقال بطريقة حجبت بعض ملامحه.. فلم ينتبه أحد في المقهى إلى بكائه.. ليقول والدموع تنهمر من عينيه:

-أنت محق.. إنني إنسان مهزوز ضعيف الشخصية ولا أملك أي مقومات لفارس الأحلام.. لا أنكر هذا كله.. لكن لا تنكر أيضاً أنك تتحمل مسؤولية انهياري النفسي بسبب ما فعلتهُ بي طوال سنوات الدراسة الثانوية.. لا يمكنك أن تتخيل مدى حقدي الشديد عليك!!.

لم أشعر بأي تعاطف معه.. لأنني مللتُ ضعفه وانهياره المستمر منذ أيام الدراسة.. وهذا ما جعلني أقول بصرامة:

- بصراحة أكرهُ أمثالك الذين يستسلمون لكل شيء ويتركون الحياة تتلاعب بهم.. هذا الضعف والانهيار الذي تعيشه مقزز.. فلتنسَ ما حدث ولتبدأ حياتك من جديد.. لا تكن أسيراً للماضي بهذه الطريقة المثيرة للشفقة!!.

يا إلهي!.. إنه يدفن وجهه بالغترة ويجهش بالبكاء من دون صوت!!.. هذا الإنسان عبارة عن زلزال من المشاعر.. يستحيل أن يعيش حياة طبيعية.. إنه ينفجر عاطفياً باستمرار.. أكاد أقسم أنه أضعف من أضعف فتاة عرفتُها!!.

تركتهُ يبكي بصمت.. قبل أن يمسح دموعه، ويلتفت سريعاً كي يتأكد أن لا أحد يراه.. ثم يأخذ نفساً عميقاً مستجمعاً قواه.. ليقول بحزن:

- تطلب مني بكل بساطة أن أنسى العذاب وكل وسائل (التنَمُّر) طوال سنوات الدراسة؟!.. وأنسى (حنان)؟!.. تطلب أن أنسى الحب الوحيد في حياتي؟!.

قلتُ بحزم:

- موضوع (حنان) انتهى.. إنها زوجتي الآن.. وهي تعيش معي حياة كريمة بعد أن أنجبنا طفلين يعيشان في بيئة مستقرة يستحيل أن تتمكن أنت من توفيرها لهما.

وضع سبابته أمامي وهو يقول مرتجفاً كما عرفته دوماً حين يغضب:

-من أنتَ كي تتحدث عن الأطفال؟!.. إن طفليك يعيشان في بيت جدهما.. أنت لا تربيهما أصلاً.. أي نجاح سيحققانه في حياتهما سببه جدهما وجدتهما وحدهما.. أما أنت فتقضي وقتك في العمل وفي علاقات قذرة مع العابثات.. وكون زوجتك لم تكشف أمرك بعد فهذا لا يعني أنك رجل شريف!!.

قلتُ ساخراً:

- لا عيبَ أن يعيش طفلاي في بيت جدهما.. ولا عيبَ أن يحبا جديهما أكثر من أبويهما.. فهما أبوان آخران لهما.. أعلمُ أن أمراً كهذا غير معتاد في عائلة مفككة كعائلتك التي.....

خرستُ فجأة.. واختفت الابتسامة الساخرة من ملامحي.. لأسأله مستغرباً:

-مهلاً.. مهلاً.. كيف تعرف عني كل هذه الأمور؟!.

ردَّ بحنق:

- كيف تظن أنني أعرف؟!.. إنني أراقبك منذ مدة.. وأقولها صراحة.. أنا أحقد عليك.. وأحسدك على (حنان).. حبيبتي التي سرقتَها مني.. وليتك عرفتَ قيمتها.

انعقد حاجبي وقلتُ مهدداً:

-لو علمتُ أنك تراقبني فلن تلومَ إلا نفسك.. سأبلغ الشرطة مباشرة.

سكتُّ للحظة وأنا أنظر إليه وإلى قصر قامته وبنيته الجسدية الهزيلة.. ثم قلتُ باحتقار تشوبه السخرية:

-ولم الشرطة؟!.. ربما سأمنعك بنفخة من فمي!!.

لملمتُ أوراقي ونهضتُ متجاهلاً احمرار وجهه ونظرات الكراهية التي يرمقني بها.. لأخرج أخيراً من المقهى آملاً ألا أرى هذا الأحمق مرة أخرى.. وعلى الأرجح أنكم فهمتم القصة كاملة من خلال الحوار الذي دار بيننا.. نعم.. لقد آذيته كثيراً في مرحلة الدراسة الثانوية والحق يقال.. كما كنا زملاءَ في دراستنا الجامعية.. حيث أحبَّ (عماد) زميلة لنا تدعى (حنان).. فتاة رقيقة رائعة الجمال وقعْتُ في غرامها أنا أيضاً.. فلاحقتها وأقنعتها بحبي وبأنني أفضل من (عماد) بكل المقاييس.. وأكدتُ لها أنني سأكون زوجاً محباً قادراً على بناء أسرة سعيدة.. إلى أن تمكنتُ من التأثير عليها.. مما جعلها تميل إليَّ تدريجياً وتقع في غرامي.. لنتزوج بعد تخرجنا بسنتين تقريباً.

أحاول أن أنسى هذا الموقف السخيف وأعود إلى حياتي.. فأقود سيارتي متجهاً إلى البيت على صوت بعض الأغاني شاعراً بشيء من القوة والفخر.. أتوقف عند إشارة المرور للحظات.. لأفاجأ بصوت غريب في الخلف.. نظرتُ عبر المرآة.. لأجد صندوق سيارتي مفتوحاً!!.. ربما لم يكن مغلقاً جيداً.. لا بأس.. هذه الأمور تحدث.

ترجلتُ من سيارتي شاعراً بالحرج من العيون التي تراقبني من السيارات الأخرى.. لكن.. توقفتُ في مكاني وأنا أنظر إلى صاحب السيارة الموجودة خلفي.. إنه (عماد)!!!.. أراه يخرج من سيارته وهو ينظر إلى صندوق سيارتي غاضباً من دون أن أفهم السبب.. ليقترب مني ويمسكني من ياقة قميصي بطريقة قد تبدو مضحكة لمن يرانا.. وكأنه قطة تحاول الشجار مع أسد قياساً للفارق الجسدي بيننا.. ثم راح يصرخ بطريقة مفاجئة:

-جريمة.. دماء.. جثة!!.

تجمدتُ في مكاني وأنا أنظر إليه من دون فهم.. و.. لم تمضِ سوى لحظات قليلة.. قبل أن يتحول الشارع بلمح البصر إلى مزار للسائقين.. مما جعلني أدفع (عماد) بعيداً وأذهب إلى صندوق سيارتي المفتوح حيث تجمعَ الناس حوله.. لأرى ما يشبه الجثة وقد تم لفّها بغطاء أبيض!!.. والدماء تقطر منها.. من الذي أتى بها إلى سيارتي؟!.. لم أجد الوقت لأفكر.. إذ قال (عماد) فجأة:

- لهذا نزلتُ من سيارتي أيها اللعين.. من الواضح أنكَ ارتكبت جريمة قتل ولم تغلق صندوق سيارتك جيداً لسوء حظك.. منظر الغطاء والدماء التي تلوثه شديد الوضوح.. إنها عدالة السماء ولا شك.

ثم صاحَ في الناس مرة أخرى:

-اطلبوا الشرطة بسرعة.. لا تتركوا هذا المجرم يهرب!!!.

أتذكر الحماس الشديد الذي دبَّ في دماء 5 أو 6 أشخاص.. جميعهم انقضوا عليَّ وأوقعوني أرضاً ليشلوا حركتي.. وأنا أصرخ فيهم وأخبرهم أنني لا أفهم ما يجري.. ثم تظهر دورية الشرطة التي وصلت بسرعة البرق.. ليخرج منها شرطي ويلقي نظرة على المكان مستمعاً لكلام الناس في الوقت نفسه.. ويتجه بعدها إلى صندوق السيارة ليتفقد ما يوجد تحت الغطاء.. والمارة يلتفون حوله رغم أوامره الصارمة بالابتعاد.. لكن فضولهم كان أقوى.. و.. رفع الغطاء لأسمع (عماد) يصرخ مباشرة:

-يا إلهي.. (حنان).. زوجته.. لقد قتلَ اللعين زوجته!!.

ينقض عليَّ الشرطي ويكبل يديَّ بالأصفاد.. ثم يطلب المساندة فوراً أمام نظراتي الزائغة.. تدور الدنيا حولي.. يكاد أن يغمى عليّ.. تقع عيني على (عماد) وهو يرمقني بسخرية لم أرها على ملامحه من قبل!!.. وكأنه خطط لهذا.. الوغد.. إنه يريد الإيقاع بي.. هل يعقل أن يسعى للانتقام بعد كل هذه السنوات؟!!.

وجدتُ نفسي أندفع نحوه مكبلَ اليدين وأنا أشتمه بأقذر الشتائم.. فكل ما يحدث يؤكد أنه قتل زوجتي ووضع جثتها في صندوق سيارتي لإلصاق التهمة بي.. نظراته تقول ذلك.. الناس والشرطي يمسكون بي ويطرحونني أرضاً.. لتصل دورية أخرى.. ثم يتم جرّي بطريقة مهينة ودفعي إلى المقعد الخلفي في سيارة الدورية أمام أعين المتطفلين.. لا أصدق ما يحدث!!.. قبل دقائق كنتُ أعيش حياة طبيعية يحسدني عليها الكثيرون.. وفجأة يتغير كل شيء.. فتُقتل زوجتي ويتم اتهامي بقتلها؟!.

لقد تطلّبَ الأمر بعض الوقت لأتجاوز مرحلة الذهول وأبدأ بالتفكير المنطقي.. يبدو أن (عماد) قتل زوجتي.. حبيبته التي خانته من وجهة نظره.. ثم ألصق التهمة بي انتقاماً مني.. وقد تمكن بوسيلة ما من وضع جثتها الغارقة في الدماء في صندوق السيارة.. وتتبَّعني بعدها إلى المقهى الذي اعتدتُ ارتيادهُ.. وهناك جلس يحاورني لسبب لا أفهمه!!.. هل أراد التأكد أنني أستحق ما سيحدث لي؟!.. لا أعلم.. هذا الرجل يعاني أمراضاً نفسية جمة.. ولا يمكن تخيل أي عقل مريض يحمله ليجعله يرتكب جريمته هذه!!.

لقد تذكرتُ أيضاً أن مفتاح سيارتي الاحتياطي مفقود منذ مدة.. فهل سرقهُ هو بطريقة ما؟!.. هل تمكن من الوصول إلى الخادمة ومن ثم إغرائها بمبلغ من المال كي تأتي له بالمفتاح الاحتياطي لسيارتي؟!.. ربما قام بفتح الحقيبة باستخدام جهاز التحكم عن بعد أثناء وقوفي عند إشارة المرور!!.. لكن هذا لا يجيب على كل شيء.. فكيف ارتكبَ هذا الوغد جريمته.. وأين قتل زوجتي بالضبط؟!.. هل اقتحم البيت وقتلها مثلاً؟!.. هذه تساؤلات يستحيل أن أعرف إجابتها ما لم يعترف هو بنفسه.

بالطبع دافعتُ عن نفسي أمام المحقق واتهمتُ (عماد) شخصياً أنه خلف كل ما حدث.. بل وتم استدعاؤه فعلياً للمثول أمام التحقيقات.. لكنه أنكر اتهاماتي.. وأقسم مراراً أنه صادفني في المقهى فحسب.. وتحدثَ معي كزميل دراسة قديم من دون أن يحدث شيءٌ يستحق الذكر على حد قوله.. ثم خرجنا في الوقت نفسه.. وكانت سيارته خلفي بالمصادفة أيضاً عند إشارة المرور.. حيثُ رأى صندوق سيارتي يفتح فجأة ليكتشف وجود شيءٍ مريبٍ فيها!!.

يبدو أنَّ (عماد) أضاعَ سنوات من عمره في العلاج النفسي من دون جدوى.. وحين وجد أن حياته

متجهة إلى طريق مسدود.. قرر الانتقام مني.. كوني الشخص الذي دمرَ حياته -من وجهة نظره- ومارسَ عليه كل أشكال (التنمّر).. ثم سرقَ حبيبته بعد ذلك!!.. وربما تطلبَ الأمر مدة طويلة ليخطط لكل شيء.. فلا يمكن التخطيط لجريمة قتل كهذه وارتكابها بسهولة.. خاصة لو كانت الجريمة الأولى.. لقد أراد (عماد) أن يحرزَ انتصاراً واحداً في حياته.. ووجد أن أهم انتصاراته سيكون ضدي.

ورغم أن القضية ما زالت أمام القضاء.. ورغم أنني ما زلتُ أحاول الدفاع عن نفسي.. إلا أنني خسرتُ الكثير.. خسرتُ سمعتي التجارية.. خسرتُ عائلة زوجتي.. حيث راح أهلها يحاربونني علانية.. ويتحدثون عن جريمتي أمام الناس وكأن التهمة ثابتة عليّ.. خاصة وأنها كانت تشكو من غيابي المستمر عنها.. في حين أحاول إقناعهم أنني قصرتُ في حقها بالفعل.. لكن الأمور لم تكن لتصل بيننا أبداً إلى القتل.

هذه قصتي باختصار.. أكتبُها لكم من خلف القضبان.. آملاً أن أخرج قريباً بكفالة.. على أن يُستكمل التحقيق في القضية.. ولا أعرف إلى أين ستتجه الأمور.. بل وما زلتُ حتى هذه اللحظة عاجزاً عن تحديد هوية الشخص الذي يلعب دور الشرير هنا!!.. هل هو أنا بعد كل ما فعلته ب(عماد)؟!.. أم أن الشرير هو (عماد) الذي يعاني من اضطرابات نفسية ومن حياة معقدة مليئة بالإحباطات.. ففعل ما فعله وضرب عصفورين بحجر واحد؟ ؟!.. الإجابة متروكة لكم.

لقد كان (التنمُّر) الشرارة التي انطلقتْ منها كراهية (عماد) تجاهي.. فكَرِهَ المدرسة.. وكرهني.. وكرِهَ حياته.. ولم ينسَ أبداً ما فعلتهُ به.. يبدو أن آلام المراهقة كالأعشاب السامة التي تنبتُ في قلبك.. فحتى لو اقتلعتها.. ستنبتُ جذورها مرة أخرى.. هذا يبرر عدم نسيان (عماد) ما فعلتهُ به رغم مرور كل هذه السنوات.. وهذا أيضاً ما جعلني أطلق على قصتي ذلك المصطلح البغيض الذي لم أفكر أنني سأدفع ثمنه يوماً.. (التنمُّر)!!!.

السجين!!

كنتُ أتساءل بين الحين والآخر في فترة مراهقتي وشبابي عن مشاعري حين أصل إلى مرحلة الشيخوخة.. فظننتُ أنها ستكون مرحلة كئيبة قلقة تجعلني أترقب الموت في أية لحظة.. لكنَّ الواقع ليس كذلك على الإطلاق.. أقول هذا الكلام بعد أن أصبحتُ عجوزاً الآن.. حيثُ ينتابني ذلك الشعور الحميم بالرضى الداخلي الذي سيجعلني أبتسم أمام الموت لو حان موعده.. لا أعرف إن كانت مشاعر العجائز هذه معتادة.. أم أنني أنا المختلفة عنهم!!.

تمرُّ تلك الأفكار في ذهني.. فأبتسمُ لا شعورياً وأنا أحتسي الشاي في شقتي.. عالمة أنني أعيش سنواتي الأخيرة.. خاصة بعد أن فتكتْ بي الأمراض.. وبتُّ أتناول الكثير من الأدوية.. ولولا ذلك الطبيب الذي يزورني في شقتي بصورة دورية.. لربما متُّ من دون أن يعرف أحد بأمري.

حقاً إنَّ الوحدة قاتلة.. خاصة لمن هم في مثل سني.. فقد توفيَ زوجي منذ سنوات.. ولم أنجب منه سوى ابنتي التي كبرت بطبيعة الحال وتزوجت من رجل يشغل منصباً ديبلوماسياً هاماً في سفارة (الكويت) في إحدى الدول الأوروبية.. لذا أستطيع أن أقول إنني لا أراها تقريباً كونها تعيش مع زوجها في الخارج.. ولا أرى أحفادي الذين التحقوا بالمدارس هناك وباتَ لكل منهم حياته المرتبطة بتلك الدولة.

لحسن الحظ أنَّ حفيدتي (ريم) الوحيدة من أحفادي التي اختارت العودة إلى (الكويت) والإقامة معي كونها تدرس في إحدى الجامعات الخاصة.. وقد خرجت مع صديقاتها إلى السينما.. على أن تعود بعد ساعات قليلة من الآن.. إنها تعيش شبابها في نهاية الأمر.. ولا يمكنها أن تبقى معي طوال الوقت.. لكن يجب أن أعترف أيضاً أنها لا تمنحني الاهتمام المطلوب.. ولا تسأل عني كثيراً.. وهذا يؤلمني.

ما زلتُ أحتسي الشاي.. وأشاهد التلفاز إلى أن يحين موعد نومي.. وهو ما أفعله يومياً تقريباً في حياتي الفارغة.. فلم أعد أقوى على الخروج بفعل تقدم السن.. بل أعتمدُ على خادمتي التي تهتم بأمري وتشتري احتياجاتي.. إنني أعاملها كابنتي.. وهي تحبني وتحترمني كثيراً.. خاصة وأنني لا أزعجها بطلباتي كما يفعل الكثيرون من العجائز.

كانت الساعة تتجاوز التاسعة مساءً.. حين شعرتُ أن أحدهم يحاول العبث في القفل ليفتح باب الشقة.. مما جعلني ألتفت ناحية الباب باستغراب!!.. وأسأل بصوت مرتفع متوتر عن هوية القادم!!.. لكن.. لم يطل الأمر كثيراً قبل أن أجد رجلاً طويل القامة ممتلئ الجسد اقتحمَ الشقة فجأة وأغلق الباب خلفه!!.. ثم راح ينظر إليَّ بطريقة ودّية غريبة.. هل هو لص؟!.. وهل يقتحم اللصوص شقق الناس بهذه الطريقة؟!.

طرحتُ تساؤلي عليه بذعر.. لكنه لم يجب.. بل قال في المقابل:

-أعرفكِ جيداً.. لقد أخبرتني حفيدتكِ (ريم) الكثير عنك.. أين هي؟!.. أنا (جمال)!!.

وكأني من المفترض أن أعرفه!!.. قلتُ بذهول:

-من أنت؟!.. وكيف تدخل بيوت الناس بهذه الطريقة من دون استئذان؟!.

تنهَّد وهو يقول:

-يبدو أن (ريم) كذبتْ عليَّ في هذه النقطة ولم تخبركِ عن هويتي كما كانت تدّعي.. إنني أحبها منذ أكثر من سنتين.. وأتواصل معها باستمرار من.... احمْ.. من السجن!!.. فهي تعرف كل شيء عني.. وتحبني في المقابل.. إلا أنَّ حبنا ولد ميتاً للأسف.. كون الأحكام التي صدرت بحقي تتجاوز ال 17 عاماً.. لكنَّ (ريم) متمسكة بي.. وتؤكد باستمرار أنها على استعداد أن تنتظرني طوال العمر.. لقد أثار حبها جنوني.. فهربتُ من السجن -بعد تخطيط استغرقَ وقتاً طويلاً- فقط كي أراها!!.. المعذرة لأنني دخلتُ بهذه الطريقة المفاجئة ولم أطرق الباب.. كنتُ أخشى أنكم لن تفتحوا لي.. عموماً.. أنا لصّ.. وفتح الأبواب ليس بالأمر العسير على شخص مثلي.. كما أنني لم أجد مكاناً مؤقتا للاختباء أفضل من هذه الشقة.. كونها المكان الذي هربْتُ من السجن لأجله.. علاوةً على أنني حافظتُ على سرية علاقتي ب (ريم).. فلن تبحثَ عني الشرطة هنا أبداً.

كان هذا آخر ما توقعتُ سماعه.. مما جعلني أتراجع بكرسيّ المتحرك بذعر وأنا أقول غير مصدقة:

-حفيدتي (ريم).. تحبكَ أنت؟!.. لماذا؟!.. وكيف التقيتُما إن كنت في السجن كما تقول؟!.

نظر إلى السقف بهيام وهو يقول:

-لقد تمكنتُ من إدخال هاتف ذكي إلى السجن بطريقة غير قانونية بالطبع.. وباتَ الهاتف منفذي الوحيد على العالم الخارجي.. فالتقيتُ ب (ريم) من خلال إحدى وسائل التواصل الاجتماعي.. حيثُ رأيت صورها.. وأعجبني جمالها كثيراً.. ومع مرور الوقت.. أخبرتها بكل شيء عني.. وأنني أعجز عن التواصل الهاتفي المباشر معها.. مكتفيا فقط بالرسائل النصية.. مع بعض الرسائل الصوتية القصيرة بين الحين والآخر.. خوفا من اكتشاف رجال الأمن وجود الهاتف بحوزتي.. لكن (ريم) تمسكت بي كما ذكرت.. وأخبرتني أنها أحبتني.. ولم تعد قادرة على الابتعاد عني.. رغم علمها بحقيقتي التي سببتْ لها صدمة كبيرة في البداية كما هو متوقع.

قلتُ بحدة:

-تضحك على حفيدتي وتضيّع وقتها في علاقة لا طائل منها.. ثم تقتحم شقتي بهذه البساطة!!.. أنت مجرم بالفطرة.

لم أحتمل هذهِ الحدة.. فرحتُ أسعل بقوة.. ليقترب مني ببطء وهو يسألني بحذر:

-أين هي؟!.. أريدُ أن أراها؟!.

قلتُ بصوت مبحوح:

-ليست هنا.. لقد خرجت مع صديقاتها.. والآن أخرج.. وإلا سأتصل بالشرطة!!.

تنهد وهو يقول:

-لن أخرج.. ولن أؤذيكِ بسبب حبّ حفيدتك الشديد لكِ.. سأنتظرها.. أريد أن أراها.. أن أمسكَ بيديها.. وأحتضنها.. إنني مستعد أن أظل في السجن طوال العمر نظير لحظات معها.. أنا أحبها.. ومستعد أن أموت لأجلها.. مهلاً.. أعرف أن هناك خادمة في الشقة.. أين هي؟!.

وجدتُ نفسي أشير إلى غرفتها.. فلا فائدة من المماطلة.. ليتجه الرجل سريعاً إلى هناك.. ويطرق بابها.. قبل أن يخرج وهو ممسك بيد الخادمة وسط نظرات الاستفهام المختلطة بالخوف وبالنعاس معاً.. لم يتطلب الأمر وقتاً طويلاً لتفهم ما يجري وتتسع عيناها ذعراً.. فقد أخبرْتها

مباشرة أنه لص.. ولم يضايقه هذا الوصف بعد أن اعتاده كما يبدو.

انتظرنا لحظات قليلة.. اتصلَ خلالها اللص بحفيدتي لكنها لم تجب.. ثم أرسل لها رسالة نصية من دون أن تجيب أيضاً.. فأكدتُ له أنها في السينما.. وربما هاتفها على وضعية الصامت.. ليجلس وينتظر.. وهو يندب حظه لأنه لم يخبر (ريم) عن وقت هروبه من السجن.. كون خطته تطلبت منه لحظة محددة ظلَّ متأهباً لها من دون أن يعرف موعدها تحديداً.. فالأمر متعلق بتغيير حارس الزنزانة.. مع رشوة آخر.. إلخ من الأمور التي لم أفهمها أو أعرها أي اهتمام.

ويبدو أنه شعر أننا لا نشكل أي خطر عليه.. فدخل المطبخ.. وفتح الثلاجة ليخرج منها بعض المأكولات.. ثم جلس على طاولة الطعام وراح يأكل بنهم وهو يتجشأ بين الحين والآخر بطريقة مقززة.. أما أنا.. فجلستُ أتبادل النظرات مع الخادمة وكل منا تبحث عن وسيلة لإبلاغ الشرطة.. و.. كأنه قرأ أفكاري.. إذ قال بفم ممتلئ بالطعام:

-لا داعي للخوف.. سأنتظر عودة (ريم) لأقضي معها بعض الوقت ثم أخرج من هنا.. لن أسبب لكما أية مشاكل!!.

قلتُ بحدة:

-بل سببتَ مشكلة كبيرة بتواصلكَ مع حفيدتي.. إنها فتاة صغيرة في السن يقودها طيشها.. من المؤكد أنك ضحكتَ عليها وأغويتها.. فأنت تبدو في عمر والدها.. وبإمكان أي شخص مثلك أن يضحك على فتاة بعمرها!!.

قال بامتعاض:

-لم أضحك عليها.. ولا علاقة لفارق السن في الأمر.. إنني أحبها بحق.. وقد أحبَّتني هي بالمقابل.. لا تنسي أنني أخبرتُها بحقيقتي كاملة ولم أكذب عليها.. إن حياتي عبارة عن مآسٍ عديدة.. و(ريم) أجمل ما حدث لي منذ ولادتي.. ولن أتركها أبداً.. إنها....

لم يكمل عبارته.. بل هجمَ عليّ.. بعد أن شعر بشيء غير عادي وهو يرى يدي تعبث بين طيات ثيابي.. وقد كان محقاً.. فأثناء وجوده في المطبخ.. كنتُ قد وضعت يدي في جيبي لأصل إلى هاتفي.. وطلبتُ الشرطة.. لم أتحدث معهم.. بل جعلتهم يسمعون حديثنا كلهُ.. آمل أن يحددوا موقعنا ويفعلوا شيئاً.. و.. يبدو أن هذا أثار جنونه.. بعد أن شعر أنني سأمنعه من رؤية حبيبته التي هرب من السجن لأجلها.. إذ دفعَ الخادمة بقوة.. لترتطم المسكينة بالحائط وتقع متألمة.. ثم اقترب مني ليمسكني من رقبتي وهو يقول بعصبية:

-لقد أخبرتكِ أنني سأقضي بعض الوقت مع (ريم) وأخرج.. لماذا أيتها اللعينة؟!.. كنتُ أكن لك الكثير من الاحترام.. لم أكن لأتسبب بأي ضرر لك أو لـ (ريم).. إنني.....

لم يجد الوقت ليكمل.. فقد سمعَ طرقات قوية على باب الشقة.. مما جعله ينظر حوله بذعر.. وهو يسمع صوتاً جهورياً يصيح في الخارج:

-افتح الباب.. نحن الشرطة.. أنصحك ألا تؤذي أحداً في الداخل.. لا تدمر حياتك أكثر مما دمرتها فعلياً!!.

لم يجد الوقت ليفعل أي شيء.. إذ ذهب كالمجنون يستكشف أرجاء الشقة عله يجد مهرباً.. لكن هذا مستحيل.. فالشقة في الدور الرابع.. ليعود إلى الصالة وهو يلهث وينظر حوله بقلق ويأس

أمام محاولات رجال الشرطة لفتح الباب.. إلى أن اقتحموا الشقة أخيراً.. وأثاروا ضجة هائلة وسط صراخه الذي جعل الجيران يخرجون ليستعلموا ما يحدث!!.

كانت ليلة عسيرة.. تأكد فيها رجال الشرطة أنني والخادمة بخير أولاً.. ثم.. سألوني عن سبب اختيار هذا السجين الهارب لشقتي تحديداً للاختباء فيها.. فأنكرتُ علمي بكل شيء.. ولحسن الحظ أن الوغد ترك هاتفه على طاولة الطعام.. لا يهم إن كان قد نسيهُ هنا أو تركه متعمداً.. يجب أن أحصل عليه وأتخلص منه.. إنه يحتوي على رسائل حفيدتي وصورها كما يقول.. وكل ما قد يدخلها في المتاعب كونها تواصلت معه وهو في السجن.

خرجَ رجال الشرطة جميعاً ممسكين بالسجين الهارب -على حد قولهم- وهو منهارٌ تماماً مكبلُ اليدين.. حيث تنفستُ الصعداء بعد أن هرعتُ لآخذ الهاتف وأضعه في جيبي.. على أن أقوم بالتخلص منه لاحقاً.. لحسن الحظ أن اللص لم يعرف الحقيقة أبداً.. ولن يعرفها بعد اليوم.. أنه في الواقع كان يتواصل معي أنا طوال السنتين الماضيتين ومنذ بدأت العلاقة!!!.. وليس مع حفيدتي (ريم) كما كان يظن!!!.

نعم.. لقد شعرتُ بالوحدة القاتلة بسبب غياب (ريم) المستمر في الجامعة أو خروجها مع صديقاتها.. إنها فتاة مليئة بالنشاط والحيوية وحب الحياة.. كم تمنيت أن أعيش حياتها في شبابي.. لكني عجزتُ بسبب العادات والتقاليد القاسية في ذلك الوقت.. وقد ساءت الأمور أكثر مع تقدمي في السن وشعوري بالوحدة.. فظللتُ أبحث عن أصدقاء أشغل معهم وقت فراغي في وسائل التواصل الاجتماعي.. لكن.. لم يكن أحد يرغب بالتواصل مع عجوزٍ مثلي.. وهذا ما جعلني أنتحلُ شخصية حفيدتي.. وأستغل صورها بفتح حساب جديد في وسيلة تواصل اجتماعي شهيرة جداً.. ثم قادتني الصدف لألتقي بهذا اللص من دون أن أعرف حقيقته في بادئ الأمر!!.. لقد كنتُ سعيدة فحسب بالتواصل معه برسائل نصية.. أو صوتية حاولت خلالها تغيير نبرة صوتي كي لا يكشف عمري الحقيقي.. كما تضاعفت سعادتي في الواقع حين أخبرني أنه في السجن يقضي عقوبة طويلة جداً.. مما سيعني أنه لن يطلب لقائي أبداً.. وإلا سيكتشف الحقيقة كاملة.. دعكم من أنني شعرتُ أنه يعيش حياة شبيهة بحياتي.. فأنا أعيش سجناً من نوع آخر.. هذا الكرسي الذي يلازمني ويعيق حركتي!!.

ورغم أنه تحدث كثيراً عن رغبته في الهرب من السجن.. إلا أنني لم أصدقه.. ولم أتخيل للحظة أنه سيتمكن فعلياً من الهرب.. ثم يأتي إلى هنا للقاء حفيدتي.. لحسن الحظ أنها لم تكن موجودة.. وإلا سأكون في موقف لا أحسد عليه أبداً!!.. لقد ظل يتصل بها أثناء تواجده هنا.. من دون أن يعلم أنه كان يتصل بي أنا في واقع الأمر.. لحسن الحظ أنني تمكنت من تحويل الهاتف إلى وضعية الصامت حال اقتحامه الشقة وإبلاغي بهويته.. وإلا كان الأمر سيثير شكوكه.

إنه درسٌ عليَّ أن أتذكره في السنوات -أو الأيام- القليلة المتبقية من عمري.. فأن أعيش وحيدة من دون أصدقاء.. أفضل من أن يكون صديقي شخصاً ذا سوابق.. وسجين!!.

اعتراف!!

من العسير على شاب في مثل عمري أن يعيش في سجن كهذا.. وإن كان لفترة زمنية قصيرة نسبياً.. ولا أعني بكلامي سجون المجرمين واللصوص.. بل أتحدث عن الجبيرة!!.. فقد تعرضتُ منذ أيام قليلة لحادث سير دمَّر سيارتي تماماً.. وأصابني بكدمات ورضوض وكسر في الحوض تطلّب أن تكون ساقي في جبيرة معلّقة بطريقة مزعجة تتطلب بقائي على السرير.. وهذا يعني عدم قدرتي على ممارسة حياتي الطبيعية لفترة من الزمن قد تصل إلى الشهرين.. وأنا لستُ معتاداً على أمر كهذا.. بل ولستُ معتاداً على البقاء في البيت أصلاً!!.

إنني أقضي جلَّ وقتي مع أصدقائي في المرح واللهو.. ولا أنسى -بالطبع- العلاقات العاطفية العابرة كحال عدد ليس بالقليل من الشباب.. فأقسم لتلك أنني أحبها.. ولغيرها أنني سأقضي معها بقية حياتي.. ووعود كاذبة لا تنتهي لأخرى أنني جاد في علاقتي بها وأرغب في التعرف عليها أكثر.. أي أنني أعيش حياة سعيدة يتمناها الكثيرون.. خاصة مع وسامتي وحرصي الشديد على بنيتي الجسدية.. فالواقع أنني بلا طموح.. بعد أن فشلتُ في دراستي.. وانتهى بي الأمر في وظيفة حكومية أراها مناسبة جداً لشاب أعزب مثلي.. كوني أستطيع الخروج -وأحيانا الغياب- متى شئت دون رقابة.

لا أنكرُ أن أفراد العائلة يرجونني دوماً أن أستقيم وأتزوج.. لكني لستُ من ذلك النوع الذي يستطيع الارتباط بفتاة واحدة وتحمل مسؤولية أطفال وأسرة.. إنني أعترف بهذا بكل واقعية.. لذا أطلبُ من والديّ وأشقائي باستمرار إغلاق موضوع الزواج وعدم التطرق إليه أبداً.. وهذا يؤكد ما ذكرته في بداية قصتي.. أنني أعجز تماماً عن البقاء في البيت بهذه الطريقة الشبيهة بالسجن.. وبتُّ أعد الأيام لانتهاء سجني الإجباري!!.

كنتُ يومها أعبث بهاتفي للمرة الألف قتلاً للملل.. خاصة بعد أن فعلتُ كل ما يمكن أن يفعله من هو في مثل حالتي.. فقد قضيتُ ساعات طويلة في مشاهدة الأفلام.. وساعات أخرى أتحدث فيها مع هذه الفتاة أو تلك.. إلى أن وصلتني رسالة هاتفية غريبة من رقم غير مسجل في هاتفي.. يسألني صاحبها عن حالي!!.. سألت باستغراب عن هوية المرسِل.. ليتضح أنها فتاة.. تقول أنها تعرفني من خلال صديقتها التي كانت تربطني بها علاقة منذ مدة.. قبل أن يصيبَ كلينا الملل ونبتعد عن بعضنا تدريجياً.. وقد حصلتْ على رقم هاتفي بعد جهد جهيد على حد قولها.. سألتها عن اسم صديقتها هذه لأنني مررت بعلاقات كثيرة ولم أعد أتذكر الفتيات اللاتي عرفتهن كلّهنّ.. لكنها رفضت الإجابة!!.. ثم أخبرتني أنها شديدة الإعجاب بي وبوسامتي.. مما أسعدني كثيراً بالطبع.. وأشعل الحماس في قلبي كوني أعيش بوادر مغامرة عاطفية جديدة.

طلبتُ محادثتها وسماع صوتها.. لكنها فضلت الانتظار قليلاً.. فطلبتُ منها أن ترسل صورتها الشخصية على الأقل كي أعرف مع من أتحدث بالضبط.. لتغيب لحظات قليلة.. وكأنها تفكر.. ثم أرسلت لي صورتها فعلياً.. حسناً.. يجب الاعتراف هنا أن الفتاة جميلة بحق.. بل رائعة.. ملامحها دقيقة للغاية وتحمل نظرة هائمة تجعلك لا تمل النظر إليها!!.. فطلبت منها بالحاح أن أتحدث إليها.. لكنها أصرت على رفضها.

رجوتُها أن تُسمعني صوتها على الأقل.. ليتبين في برنامج المحادثة أنها بصدد إرسال رسالة صوتية بالفعل.. مما جعلني في قمة الترقب.. و:

-كيف حالكَ الآن؟!.. هل تحتاج شيئاً؟!.

التفتُّ بحدة.. لأرى شقيقتي وهي تدخل غرفتي لتطمئنَّ عليّ.. فأخبرتُها بشيء من الحدة أنني بخير.. ثم طلبتُ منها أن تغلق الباب خلفها وتتركني قليلاً.. لتنظر إلي بأسف كوني أعاملها دوماً بجفاء والحق يقال.. المهم أنها تركتني.. وأنا ما زلت أنتظر انتهاء الفتاة من تسجيل رسالتها.. لأسمع صوتها أخيراً وهي تسألني عن حالي وتخبرني باسمها.. وتقولُ أنها ربما تتصل بي قريباً كي نتعرف على بعضنا أكثر.. حسناً.. هذا رائع.. إنها تستجيب لي تدريجياً.. لن أتأخر كثيراً قبل أن أحادثها هاتفياً وألتقي بها بعد أن أتعافى.

ثم.. بدأت الأمور تتخذ منحىً مختلفاً حين أرسلت الفتاة رسالة صوتية أخرى تطلب فيها أن أرسل لها صورتي الآن.. في هذه اللحظة تحديداً!!.. فأخبرتها أنني لستُ بأفضل حالاتي بسبب إصاباتي.. وبإمكاني إرسال صورة حديثة نسبياً قبل الحادث.. لكنها أصرت على طلبها بطريقة غريبة رغم محاولاتي الطويلة للتملص !!.. و.. في النهاية.. التقطتُ لنفسي صورة.. وأرسلتها لها.. عندها فقط.. توقفت الفتاة عن التواصل فجأة!!.. مما جعلني أرسل لها رسالة أخرى وأخرى أسألها عن سبب غيابها.. لكنها اختفت تماماً.. هل هو مقلب؟!.. وما الغاية منه بالضبط؟!.

ظللتُ قرابة نصف الساعة أشاهد التلفاز بذهن منشغل.. أفكر إن كانت الفتاة سترد علي.. لتصلني أخيراً رسالة منها تعتذر فيها عن غيابها.. فأخبرتُها -وقد تنفسْت الصعداء-أنني أرغب جدياً في التحدث معها.. وربما نلتقِي لاحقا لو شعرَتْ بالراحة تجاهي.. لكنها وجهت لي صدمة هائلة.. حين أرسلت رسالة قصيرة تخبرني فيها أنها معي في الغرفة حالياً!!!.. ثم وضعتْ بجانب ردها ابتسامة تعبيرية بريئة!!.. في البداية ظننتُها تمزح.. لكنها ظلت تؤكد أكثر من مرة أنها معي في الغرفة بالفعل.. وأن علي فقط أن أدقق النظر في الصورة التي التقطتُها لنفسي وأرسلتُها لها قبل قليل!!.

أعترفُ أنني شعرتُ ببعض التوتر وأنا أبحث في ألبوم هاتفي بسرعة.. ثم نظرتُ في الصورة من دون أن أرى سوى نفسي مبتسماً بطريقة حاولتُ جعلها جذابة.. لا أنكر أنني شعرتُ بالغباء.. لكن.. وصلتني بعد لحظات رسالة أخرى من الفتاة تطلب مني أن أدقق النظر جيداً في الصورة.. وسأرى شيئاً ضبابياً خفيفاً بجانبي!!!.

رحتُ أدقق النظر كما طلبَتْ.. لأرى بقعة ضبابية باهتة جداً لم أنتبه لها للوهلة الأولى.. لكن بعد التدقيق.. بدتْ لي وكأنها.. وكأنها وجه!!.. هل خيالي هو الذي يصور لي ذلك؟!.. إنها ظاهرة شهيرة قرأتُ عنها ذات مرة في إحدى وسائل التواصل الاجتماعي ([2])!!.. أعرفُ ما قد يدور في أذهان البعض.. أنني أتواصل حالياً مع شبح!!.. بالطبع لا أصدق هذه الأمور.. فهي تحدث في القصص فقط.. وقبل أن أرد.. وجدتُ رسالة أخرى من الفتاة تخبرني فيها بإصرار أنها تجلس بجانبي الآن.. وأنها هي نفسها ذلك الشيء الضبابي الخافت الذي أراه في الصورة!!.

حاولتُ التماسك وأنا أرسل لها ابتسامة ساخرة أخبرها فيها أنها لن تخيفني.. فتجاهلت الفتاة رسالتي.. وطلبت مني أمراً محدداً.. أن أعترف بالحقيقة.. وأنها كشفتْ أمري على حد قولها!!.. إنها لعبة نفسية مارسناها جميعاً مرة واحدة في حياتنا على الأقل.. حين تخبر أحدهم أنك تدرك جيداً ما فعله.. وهي جملة عامة مطاطة جداً تجعله يشعر بالتوتر.. ويعود بذاكرته إلى الوراء مسترجعاً أي عمل سيئ قام بارتكابه!!.. ورغم علمي بهذه الخدعة الساذجة.. إلا أنني شعرتُ بالمزيد من التوتر والخوف.

فأرسلتُ لها ابتسامة ساخرة أخرى محاولا تجاوز الأمر.. لكنها كررت كلامها.. وأخبرتني أنها تعرف جريمتي جيداً.. وتريد مني الاعتراف فحسب!!!.. والاعتراف وحده سينقذني منها!!.. بصراحة شعرتُ أن المحادثة ستأخذني إلى منحى آخر.. فأخبرتها أنني سأتوقف عن التواصل.. ثم وضعتُ الهاتف جانباً لأمسك بجهاز التحكم عن بعد.. وأستعرض قنوات التلفاز محاولاً تفريغ شحنات توتري.

لا أعرف كم قضيتُ من الوقت.. قبل أن أشعر أن إضاءة غرفتي تخفت.. ثم تعود.. وتخفت مرة ثانية بتكرار مزعج!!.. هل هو خلل في التيار الكهربائي؟!.. ماذا عن الفراش؟!.. إنه يهتز بطريقة مرعبة جعلتني ألتفت حولي بهلع.. ليعم السكون غرفتي.. لا أعرف لماذا شعرتُ أن ما حدث ليس صدفة أبداً.. بل مرتبطاً بالفتاة التي تواصلت معها.. إن كانت بالفعل فتاة!!.. فأمسكتُ بهاتفي.. ووجدت رسائل جديدة منها تطلب مني الاعتراف بجريمتي.. وإذا لم أعترف.. سوف لن تتوقف عن.. عن هز الفراش والعبث في كهرباء غرفتي!!!.

شعرتُ بذعر شديد.. وصرختُ منادياً أشقائي.. مرة.. مرتين.. إلى أن هرعت شقيقتي مسرعة.. لتراني في أسوأ حال ممكن.. فسألتني بقلق:

-ما بك؟!.. هل تشعر بالألم؟!.. الجميع نائم سواي.

كيف سأردُّ عليها؟!.. لا أريد أن أخيفها.. وحتى لو فعلت.. كيف ستساعدني؟!.. أخبرتُها أنني مرهق قليلاً.. وطلبتُ منها الجلوس معي في الغرفة كوني أشعر بالملل.. فامتثلت لي وجلست فعلياً وسط نظرات استغرابها.. لأنني لم أطلب منها ذلك من قبلُ.. خاصة وأن علاقتي بشقيقتي ليست جيدة كما ذكرت.. إنني أتحكم بها باستمرار وأتجسس عليها.. وهو أمر طبيعي من شاب اعتاد اللهو مع العابثات.. فبات يشك في كل فتاة.. حتى في شقيقته نفسها!!!.

لكن شقيقتي لن تبقى معي إلى الأبد بطبيعة الحال.. فبعد نصف الساعة.. شعرَتْ بالملل رغم أنني حاولتُ إشغالها بالحديث عن مواضيع مختلفة.. لتخبرني بلهجة يشوبها الاعتذار.. أنَّ عليها الذهاب لاستذكار دروسها.. مما يعني بقائي وحيداً.. و.. ما إن رحلتْ.. حتى خفتتْ أضواء غرفتي مرة ثانية.. واهتز سريري بعنف مضاعف عن المرة السابقة.. فأمسكتُ هاتفي وأنا أطلب من الفتاة أن تتركني في حالي.. لتصلني منها رسالة صوتية تحدّثتْ فيها بصوت مختنق مخيف.. وهي تطلب مني أن أسجل لها اعترافاً صوتياً بجريمتي وإلا ستستمر في مضايقتي!!.. سألتها بذعر عن أية جريمة تتحدث بالضبط!!.. لكنها أجابت برسالة صوتية أخرى تتخللها ضحكة مرعبة.. تقول فيها أنني أعرف جيداً ما تتحدث عنه!!.

حينها انهرتُ تماماً.. وبكيتُ.. لأذكرها أنني مصاب بكسر في ساقي ولا أقوى على الحراك.. وأطلبُ منها متوسّلاً أن تتركني في حالي.. نعم.. فقدتُ قوتي ووقاري وثقتي بنفسي بعد أن رأيتُ أنني أواجه شيئاً من عالم مرعب ظننتهُ لا يصلح سوى لإخافة الأطفال!!.. حينها وصلتني رسالة جديدة منها وهي تطلق ضحكة طويلة أخرى تشبه ضحكات الساحرات في القرون الوسطى إن كان هناك شيءٌ كهذا.. ثم سألتني بخبث عن سبب إصابتي.. لأكرر ما قلته لها سابقاً.. أنني تعرضت لحادث سير تسبب في تلك الإصابة.

ويبدو أن إجابتي هذه لم تعجبها.. إذ سألتني في رسالتها الصوتية الجديدة -وبصوت يحمل إصراراً مخيفاً-عن سبب الحادث (الحقيقي) الذي أخفيتهُ عن الجميع!!.. هنا شعرتُ بالرعب فعلياً.. وقد تيقنتُ أن الأمر يتجاوز العبث والخدعة.. هذه الفتاة تعرف جيداً ما تتحدث عنه.. فسألتها

بصوت مختنق عن هويتها.. لتؤكد لي بلهجة صارمة أنني سأعرف الحقيقة كاملة بعد أن أخبرها بالتفاصيل التي أخفيتُها عن الجميع!!.

رحتُ أمسح دموعي.. وأحاول السيطرة على نفسي.. لأخبرها برسالة حملت صوتي مضطرباً أنني كنتُ أعبث في هاتفي.. ولم أنتبه.. فاصطدمتُ بسيارة كان يقودها رجل مع ولده.. حيث تعرضا لبعض الإصابات.. إلا أنها كسور عادية ستشفى سريعاً.. والواقع أنني كنتُ أخشى إلى درجة الموت ردَّها على كلامي.. لكنَّ مخاوفي تحققت للأسف.. حين وصلتني منها رسالة تسألني فيها إن كان هو حادثٌ بالفعل.. أم أنني اصطدمتُ بالسيارة متعمداً؟ !!.. فسألتها بعصبية -وللمرة العاشرة ربما- عن هويتها.. لكنها لم تجب.. بل أرسلت صورة تعبيرية ساخرة مع تكرار طلبها بالاعتراف.. يا إلهي!!.. إنها تعرف الحقيقة.. كل ما تقوله يوحي بذلك!!.

حاولتُ أن أماطل.. لكن كهرباء غرفتي خفتت.. واهتز سريري بعنف أكثر من المرتين السابقتين.. أصابني الأمر برعب جعل أسناني تصطك لا شعورياً!!.. إنَّ ما أعيشه هذه اللحظات مرعب.. وأقوى من الواقع.. أقوى من قامتي الطويلة وعضلاتي المفتولة وشخصيتي المتعجرفة.. هل أعترف؟!.. هل أخبرها؟!.. يبدو أنها لن تتركني في حالي.. لذا قررتُ الاعتراف من دون مراوغة!!.

أرسلتُ إليها رسالة صوتية طويلة نسبياً.. أتحدث فيها بصوت باكٍ أنني كنتُ أطارد بسيارتي فتاة رائعة الجمال.. وقد حاولتُ لفت انتباهها بشتى الطرق.. إلّا أنها نظرت إليَّ باحتقار شديد وهي تطلب مني أن أبتعد عن طريقها.. فأثارت غضبي.. وتعمدتُ الانحراف بسيارتي ناحيتها كيف أخيفها.. مما جعلها تفقد سيطرتها على مقود القيادة.. لتصطدم بالجانب الأيسر لسيارتي بعنف.. وتنقلب أكثر من مرة.. على الأرجح أن الفتاة توفيت.. أو تعرضت لإصابات بليغة على أقل تقدير!!.

لم يكن يرانا أحدٌ.. إذ كان الوقت متأخراً.. مما جعلني أهرب بعيداً عن مكان الحادث.. وأقف بعدها على جانب الطريق كي أعاين حجم الضرر الذي أصاب سيارتي نتيجة تهوُّري.. لأكتشف أن الجانب الأيسر تعرض لتلف شديد.. وهذا يعني ضرورة إصلاحه.. ويعني أيضاً أن تحريات رجال الشرطة قد تقودهم إلي.

وبسبب الذعر الذي أصابني.. طرأتْ في ذهني فكرة لا يمكن أن تطرأ في بال أحد!!.. لكني وجدتُها مناسبة جداً ولا تحتمل التأجيل.. أن أفتعلَ حادثاً مرورياً آخر متعمداً وأصطدم بسيارة أخرى.. على أن أتخذ الإجراءات القانونية كلّها هذه المرة.. فهذا سيبعد عني الشبهات.. وسيخفي مكان الحادث الأول!!.. لذا قدتُ سيارتي لبضع دقائق.. ثم تعمدتُ ارتكاب حادث سير أُصيبَ فيه رجلٌ مع ولده.. إلا أن إصاباتهما لم تكن خطيرة كوني كنتُ مستعداً لهذا الاصطدام.. حيث ادَّعيتُ في التحقيقات أنني كنتُ أعبث في هاتفي النقال ولم أنتبه.. وهو ما ذكرته للجميع.. وقد ظننتُ أن خطتي نجحت.. بعد أن مر الحادث الأول دون أن توجه إليَّ أصابع الاتهام.

انتهيتُ من كلامي وأنا ألهث.. حينها فقط.. أرسلت الفتاة رسالة صوتية بصوتها المخنوق المخيف وهي تثني على اعترافي بالحقيقة.. وتقول أنَّ عليَّ الآن إبلاغ الشرطة بعد أن سلبتُ روحاً بريئة من جسد صاحبتها.. إنها روحها هي!!.. نعم.. لقد كنتُ أتواصل مع الفتاة ضحية الحادث الأول.. وهي الآن ترغب في الانتقام بعد أن أزهقتُ روحها بسبب تهوري.. لم أتعرَّفها حين أرسلتْ لي صورتها قبل قليل.. وهذا أمر طبيعي كوني طاردتها بسيارتي ولم أدقق جيداً في ملامحها.

إنها من اللحظات التي ينعقد عندها لسانكَ.. ولا تعرف ما تقول!!.. فأنا أتواصل حالياً مع

ضحيتي.. مع فتاة قتلتُها بحادث سير أتحمل مسؤوليته.. إضاءة الغرفة تخفت مرة أخرى.. السرير يهتز بقوة.. لم أحتمل انتقامها.. انتقام الموتى أدهى وأخطر من انتقام الأحياء كما يبدو.. فاتصلتُ مباشرة بالشرطة لأخبرهم بجريمتي.

لم يطل الأمر قبل أن تصل دورية شرطة إلى البيت.. ليأخذني أفرادها إلى المخفر.. وبالطبع كان اعترافي صادماً للجميع.. لكنها الحقيقة.. والأفضل أن أقولها.. سيحميني هذا من انتقام ضحيتي على الأقل.. حيثُ انتهى الأمر بديّة ضخمة طلبها أهل الفتاة دفعتُها لهم عن طيب خاطر بعد أن اقترضت من أحد البنوك.. كان هذا بعد أن علموا بالحقيقة وكادوا أن يفتكوا بي.. وتحديدا شقيقها الذي أمسكني من عنقي وراح يوجه لي اللكمات.. في حين راح البقية يبعدونه عني.. وقد ظن الجميع وقتها أن اعترافي سببه تأنيب الضمير فحسب.. إذ لم يعرفوا السبب الحقيقي أبدا.. ولن أخبر به أحد بالطبع.. لأنهم لن يصدقوا ما مررتُ به من أحداث غريبة وأنا على فراشي!!.

الغريب أنه بعد أسابيع قليلة.. وبعد أن هدأت الأمور.. بحثتُ عن الرسائل التي وصلتني من تلك الفتاة.. لكني لم أجد لها أي أثر.. هل محاها أحدهم؟!.. أم أنني محوتُها بنفسي من دون قصد؟!.. لا أظن أنني فعلتُ ذلك.. فطرأ في ذهني أمر آخر.. أن الشعور بالذنب جعلني أتخيل المحادثة السابقة مع الفتاة.. أو ربما روح الفتاة تواصلت معي فعلياً ثم قامت بمحو كل الرسائل!!.. فلا أحد يعلم ما يستطيع الموتى فعلهُ!!.. كل ما أعرفه أنني شعرتُ بالراحة النفسية.. وقد قررتُ للمرة الأولى في حياتي تغيير الكثير من سلوكياتي.. بعد أن قدمتُ للشرطة ما أنهى القضية بالكامل.. الاعتراف الذي كانت تنشدهُ ضحيتي!!.

مكان غير مألوف!!

تلك اللحظة الغريبة حين تشعر أنك نصف مستيقظ وتحاول أن تتذكر هويتك ومكانك في هذا العالم!!.. هناك أيضاً ذلك الألم الغريب في رأسي والذي يجعلني عاجزاً عن استيعاب ما يحدث حولي.. أنتظرُ للحظات أحاول خلالها السيطرة على الصداع.. ألتقط أنفاساً عميقة.. ثم أفتح عيني ببطء.. ووعيي يعود إليَّ كاملاً بعد لحظات.. فألتفتُ حولي.. لأجد نفسي نائماً في غرفة لم أرها من قبل.. لكنها بدت أنيقة جداً.. وكأنها في أفخم الفنادق!!.. أنظرُ إلى ثيابي باستغراب.. لأجد نفسي مرتدياً بيجامة أعرف أنني لا أمتلك مثلها!!.. يفترض أن أشعر بالقلق كوني استيقظتُ في مكان مجهول لا أعرف كيف وصلتُ إليه.. لكن.. أناقة المكان تمنعني عن ذلك.

ألتقط نفساً عميقاً مرة أخرى.. وأنتبه أن هناك من ينام بجانبي على السرير.. إنها.. إنها فتاة رائعة الجمال!!.. من أين جاءت هذه الفتاة؟!.. هل يفترض أن تعرفني؟!.. أنا لستُ متزوجاً.. فعمري لم يتجاوز الـ 19 بعد.. أتساءلُ إن كان يتوجب علي إيقاظها.. لكني أقرر النهوض واستكشاف الغرفة أولاً.. إنني لا أرى أي مصدر للضوء سوى أشعة الشمس التي تدخل من النافذة المفتوحة.. حيث تدخل منها أيضاً أنسام الهواء الباردة نسبياً!!.

أذهبُ إلى النافذة لأستكشف العالم الخارجي.. إنني في حيٍّ سكني أنيق جداً وشديد النظافة.. وكأنه أُنشئ للتو!!.. هذا ليس بيتنا بكل تأكيد.. أبتعد عن النافذة وأسير لا شعورياً متجهاً خارج الغرفة.. هناك درج يؤدي إلى الطابق الأسفل.. فأنزلُ بخطوات بطيئة والصمت يخيم تماماً على المكان.. كل شيء أنيق جميل نظيف جداً.. أين أنا؟!.. وكأنني أحلم.

أدخلُ غرف البيت جميعها فلا أجد أحداً.. ثم أعود سريعاً إلى غرفة النوم وقد بدأ التوتر يسيطر علي.. أحاول أن أفهم ما يحدث.. لا بد من إيقاظ الفتاة.. لا أجد حلاً آخر.. أتنحنح.. ثم.. أضع يدي على كتفها لأهزها برفق.. لحظات قليلة قبل أن تفتح عينيها لتفاجأ بوجودي.. وتطلق شهقة قوية وهي تستر نفسها باللحاف رغم أنها ترتدي بيجامة تغطي جسدها بالكامل.. ثم ترجع شعرها إلى الخلف وهي تسألني بذعر عن هويتي وعن سبب وجودها في هذا المكان الذي يبدو غريباً عليها أيضاً.. فأتراجع ملتصقاً بالحائط كي أشعرها بالأمان مؤكداً أنني لن أؤذيها.. وأخبرها بتوتر أنني أنا نفسي فوجئتُ بما يحدث حين استيقظتُ قبلها.. لكنها لا تصدقني.. وتطلق صرخة طلباً للمساعدة.. صوتها يشق سكون المكان.. فأشعر بالذعر وأنا أرجوها أن تهدأ.

تطلَّبَ الأمر بعض الوقت كي تصدق أنني أعيش هذا اللغز مثلها ولا أملك إجابات على أسئلتها.. لتنهض من الفراش وهي تنظر إلى ثيابها وإلى المكان.. مؤكدة بدورها أن هذا ليس بيتها.. فطلبتُ منها أن تنظر عبر النافذة علها تعرف الحي السكني.. لتتقدم بخطوات مترددة حذرة.. وتلقي نظرة طويلة.. ثم تغمغم بقلق:

-أنا لم أرَ هذا الحي من قبل!!.. ماذا عنك أنت؟!.. هل يبدو لك المكان مألوفاً؟!.. هل تتذكر كيف وصلتُ إلى هنا أصلاً؟!.

هززتُ رأسي نفياً.. لتقول هي بذعر شديد:

- يا إلهي!!.. يجب أن أعود إلى البيت الآن.. لا أعرف ما الذي سأقوله لأهلي!!.. لا شك أنهم يبحثون عني منذ الأمس وأنا لا أملك أية إجابات عن وجودي معك هنا.

قلتُ في حيرة:

-لقد نزلتُ إلى الدور السفلي قبل قليل.. وبحثتُ في الغرف كلها.. لم أجد أي أثر لأحد.. أخبريني.. ما هو آخر ما تتذكرينه قبل نومك؟!.

سكتتْ طويلاً.. ثم قالت ببطء وهي تفكر:

-كنتُ في طريق عودتي من السينما مع خالي وابنته.. كان الوقت متأخراً.. فدخلتُ إلى ساحة البيت الداخلية.. هذا آخر ما أذكره!!.. ماذا عنك؟!.

جلستُ على الأرض مستندا إلى الحائط.. ثم قلتُ ببطء:

- كنتُ في طريقي عائداً إلى البيت سيراً على الأقدام.. بعد أن قضيتُ السهرة في منزل أحد الأصدقاء.. ثم وجدتُ نفسي هنا!!.

لم ترد.. بعد أن تبينَ لها أنَّ كلينا لا يملك الأجوبة.. ليغرق كل منا في أفكاره الخاصة.. ثم اقترحتُ على الفتاة أن نخرج لاستكشاف الحي على الأقل بدلاً من الجلوس هنا وانتظار المجهول.. لتنهض موافقة وهي تقترب مني بشكل ملحوظ من شدة الخوف.. بعد أن تأكد لها أنني ضحية هذا اللغز.. مثلها تماماً.. والواقع أنني لم أشأ أن أثير مخاوفها أكثر.. لأنني بدأتُ أتساءل في قرارة نفسي عن مدة نومنا!!.. هل كنا على هذا الفراش لليلة واحدة فقط؟!.

وقبل أن نخرج.. تذكرتُ أمراً ما.. فاتجهتُ سريعاً ناحية الدولاب متسائلاً عما يمكن أن أجد فيه.. لأعثرَ على ثياب كثيرة وأحذية تناسب مقاساتنا.. هل هذا مقصود؟!.. المنطق يقول: نعم.. ولكن هل يوجد منطق فيما يحدث لنا أصلاً؟!.. المهم أننا ارتدينا ما يمكن ارتداؤه بدلاً من ثياب النوم هذه.. وخرجنا معاً من الغرفة نزولاً إلى الطابق الأرضي.. ثم إلى الحي السكني.

المكان شديد النظافة بالفعل.. والحي خالٍ تماماً من السكان لا تسمع فيه صوتاً.. الشارع يكاد يبرق.. وكأنه قد تمَّ تعبيدهُ بالإسفلت منذ لحظات!!.. هناك أمر آخر مريب.. السيارات.. لا توجد أية سيارات في الحي.. لم أنقل تساؤلاتي هذه للفتاة.. بل مشيتُ معها بصمت مطبق.. أكاد أقسم لو ألقيتْ إبرة في هذا المكان لأحدثت دوياً مزعجاً.. أين الحشرات؟!.. أين القطط الضالة؟!.. أين الناس؟!.. لا شيء إطلاقاً!!.. ثم.. نقرع جرس هذا البيت.. وذاك.. البيوت جميعها خالية.. أين نحنُ بالضبط؟!.. أين ذهب الجميع؟!.. وكأننا آخر من تبقّى من البشر.. وأمام هذا الغموض.. توقفتُ.. لتتوقف الفتاة باضطراب.. وتبدأ بالبكاء.. فاقتربتُ منها أسألها عن اسمها.. و:

-(دلال)!!.

إنها تبدو رائعة رغم دموعها وحزنها.. ورغم أنها صحت من النوم للتو وترتدي ثياباً بسيطة.. فكيف ستبدو لو تأنقت؟!.. لو كنتُ في ظروف طبيعية لألقيتُ على مسمعها قصائد إعجاب!!.. عموماً.. يجب التركيز على ما يحدث.. القلق يلتهمني من الداخل.. لكني أحاول التماسك.. لأركض خارجاً من الحي وأنا أطلب من (دلال) أن تنتظر قليلاً.. و.. حتى الشوارع الخارجية خالية تماماً.. ونظيفة جداً كما هو الحال مع كل شيء آخر هنا.. وكأنني في مكان لم يطأه بشر من قبل.. حتى الجو يحمل خلفه لغزاً.. إنه يبدو معتدلاً جميلاً وليس حاراً كما هو يفترض كوننا في فصل الصيف.. ناهيكَ عن عدم وجود أي صوت للرياح!!.

عدتُ مسرعاً إلى (دلال) أخبرها بيأس أننا وحدنا هنا.. فانهارت المسكينة.. ووقعت أرضاً وهي تبكي بحرقة.. مما أشعرني بحماقة ما قلتهُ.. لأنحني وأضع يدي على كتفها محاولاً التخفيف عنها..

أرجوها ألا تقلق.. وأعدُها أننا سنفهم ما يجري هنا إن عاجلاً أم آجلاً.. لترد وهي تمسح دموعها بأكمام ثيابها:

-لقد كنتُ آمل أنَّ ما يحدث لا يتجاوز حلماً غريباً أعيش تفاصيله وأنا نائمة بأمان في بيتنا.. لكني لن أخدع نفسي أكثر.. إن ما أعيشه معك هو الواقع.. مهما بدا غريباً لا يصدق.. ماذا سنفعل الآن؟!.. كيف سنفهم ما يحدث حولنا؟!.

تنهدتُ بعمق.. ثم طلبتُ منها العودة إلى ذلك البيت حيث استيقظنا ووجدنا أنفسنا فيه.. ربما نعثر على شيءٍ نأكله.. على أن نخرج في المساء بعد أن نستجمع قوتنا.. ونسير لمسافات أبعد كي نستكشف المكان.. فربما نعثر على أحد.. أقول كلامي مبتسماً مشجعاً.. فتنظر إليَّ بعينينِ مغرورقتين بالدموع.. ثم تمسك بيدي وتنهض.. ونسير إلى ذلك البيت.. ولحسن الحظ.. عثرنا على سلة فواكه التهمنا ما فيها بنهم وبصمت.

جلسنا بعد ذلك في غرفة المعيشة.. ودار بيننا حديثٌ طويلٌ وضعنا خلاله الاحتمالات الممكنة كلها.. من دون أن نعثر على احتمال منطقي واحد لما نعيشه!!.. إلى أن انطفأت الشمس فجأة!!.. وبتنا في ظلام حالك لا نرى معهُ شيئاً ولا نسمع سوى صوت أنفاسنا.. هذا مستحيل.. لا يمكن أن يأتي المساء فجأة هكذا!!.. ثم.. سمعنا ذلك الصوت الذي يأتينا من كل مكان إلى درجة استحالة تحديد مصدره.. صوت عميق يقول بهدوء شديد:

-أرجوكما.. أرجوكما لا تخشيا شيئاً.. لن أؤذيكما أبداً.. بل على العكس تماماً.. سأحميكما من كل شيء!!!.

كان لهذه الكلمات وقع الزلزال علينا.. خاصة مع الظلام الذي خيمَ على المكان.. مما جعل (دلال) تبحث عن يدي لا شعورياً التماساً للأمان.. ويبدو أن صاحب الصوت شعر بخوفنا.. فأكمل سريعاً وبكلمات حرص -كما يبدو-على أن تكون واضحة للغاية:

-أكرر.. أرجوكما لا تخشيا شيئاً.. ستعرفان الحقيقة كاملة الآن.. وتأكدا أنكما في مأمنٍ هنا.. لن يصيبكما أي ضرر!!.. اسمعاني جيداً.. فما سأقوله لا يصدق.. وربما ستظنان أنني أمزح.. أو أن هناك خدعة ما.. لكن من السهل التأكد من كلامي.. يكفي ما رأيتُماه حال استيقاظكما من النوم.. إنه دليلٌ قويٌّ على صدق ما ستسمعانه.. حسناً.. في الواقع أنتما موجودان الآن في نموذج مصغر جداً لمنطقة سكنية.. هذا النموذج في واقع الأمر بحجم كف يدي!!.

قالت (دلال) بصوت مرتعب وكأنها لم تسمع شيئاً مما قاله:

-أرجوك أتركنا نخرج من هنا.. أتوسل إليك!!.

قال الصوت العميق بشيء من الأسف والتعاطف:

-لو خرجتُما من هنا.. فستلتهمكما الحشرات!!.. أنتما بحجم أصغر من أصغر نملة!!.

قالها قبل أن تظهر الشمس مرة أخرى فجأة.. ويظهر بجانبها أمام النافذة شيءٌ ما.. مما جعلني أنهض من مكاني بذعر شديد محاولاً استيضاح ما يحدث.. فخرجتُ من البيت تتبعني (دلال).. وقد تطلبَ الأمر بعض الوقت لأكتشف أن ما يملأ السماء هو في واقع الأمر وجه آدمي!!!.. نعم.. إنه وجه بشري.. رجل هائل الحجم يبدو كبيراً في السن.. يقف بجانب الشمس وهو ينظر إليَّ من خلال مكبر يحمله بيده.. ويبتسم بتعاطف شديد!!.

وأمام الذعر الذي سيطرَ علينا.. سمعته يقول بصوت حاول جعله منخفضاً لكنه بدا مدوياً:

-المعذرة.. لم أرغب في الظهور فجأة كي لا أخيفكما.. لهذا أطفأتُ الأنوار للحظات.. وجعلتكما تسمعان صوتي أولاً.. بالمناسبة.. أستطيع سماعكما بواسطة الميكروفونات التي وضعتها في كل مكان هنا.. إنها متصلة لا سلكياً بسماعة متصلة بدورها بأذني!!.

قالها وهو يلتفت ليُرينا السماعة.. ثم راح يكمل:

-أعلم أنكما تتساءلان طوال الوقت عما يحدث لكما.. ستعرفان الحقيقة كاملة الآن.. اسمي (سلمان).. إنني أحمل درجة الدكتوراة في الفيزياء.. والواقع أنني نابغة في مجال تخصصي.. ولا أقولها تكبراً.. إنها الحقيقة!!.. وقد كنتُ طوال حياتي أحلم بتحقيق إنجاز يساهم بتقليص معاناة الإنسان.. فوجدتُ أن مشكلة البشرية الأبرز تتمثل في توفير الغذاء!!.

صمتَ للحظة سمعنا فيها صوت أنفاسه وكأنها رياح عاصفة قياساً إلى حجمنا.. ليكمل:

-فرغم المزارع والثروات الحيوانية كلها.. إلا أن المجاعات ما زالت تجتاح العالم للأسف.. لهذا طرأتْ في ذهني فكرة غريبة للغاية.. ماذا لو تمكنا من زيادة حجم البقرة على سبيل المثال لتصبح أضعاف حجمها الحالي؟!.. هذا سيعني أن لحمها سيكفي عشرات العوائل.. وحليبها سيكفي مئات الأطفال.. لكن.. المشكلة أن البقرة الواحدة بهذا الحجم الهائل.. ستحتاج بدورها إلى مساحات هائلة كي نرعاها.. وكميات ضخمة من المياه والغذاء.. وهذا ما جعلني أفكر بطريقة عكسية.. أن أقوم بتقليص حجم الإنسان نفسه ليصبح بحجم النملة ([3])!!!.

سكتَ للحظات.. ثم شعرت ب (دلال) تأتي ناحيتي.. وتنظر إليَّ بقلق.. وكأنها تنتظر مني أن أفعل شيئاً.. لكن.. لم يكن هناك ما يمكنني فعله بطبيعة الحال.. ليكمل الرجل:

-أعرف أن الفكرة جريئة.. وغريبة للغاية.. لكنها تنقذ البشرية من كل شيء.. فبدلاً من استيطان الكواكب الأخرى.. بإمكاننا إعادة استيطان كوكبنا.. حينها اتخذتُ قراري.. وبدأتُ سلسلة أبحاث استغرقتْ سنوات طويلة لتقليص حجم الإنسان ليكون أصغر من النملة.. حينها لن نحتاج مساحات شاسعة لبناء المدن والوحدات السكنية.. ولن نحتاج لكميات كبيرة من الماء والغذاء.. و.. من هنا بدأت فكرتي.. خاصة حين نجحتُ في البداية بتقليص حجم الفواكه.. لكن.. المشكلة كانت في البحث عن متطوع.. فمن سيقبل المخاطرة بتجربة كهذه؟!.

كان الكلام الذي نسمعهُ أغرب وأكثر جنوناً من أن نستطيع الرد عليه.. لذا قلتُ بعصبية:

-حدثنا بالعقل وبالمنطق بدلاً من هذا الجنون!!!.

ابتسم بوجهه العملاق.. وهو يقول:

-هكذا هو الإنسان.. يمتلك قوة مذهلة في إنكار الحقائق.. إنك لا تصدقني رغم ما تراه أمامك الآن!!.. يا ولدي.. ما أقوله لك هو الحقيقة وإن بدت غير معقولة للمنطق المعتاد.. لا تنسى أنَّ الكثير من الأشياء التي صورها خيال الإنسان في الماضي أصبحت حقيقة الآن.. هكذا هو العلم.. دائماً يُهاجَم.. ودائماً ينتصر!!.

انفجرتُ غاضباً، وأنا أصرخ:

-ومَن أعطاك الحق أيها اللعين كي تمارس تجاربك المريضة علينا؟!.. أعدنا إلى حجمنا الآن!!.

اغرورقت عيناه بالدموع.. لكنه تماسكَ وسيطرَ على أعصابه بسرعة ليقول:

-لستُ أنا من فعل بكما هذا يا ولدي.. بل مساعدي.. كان شديد التوق لتنفيذ مشروعنا.. فقط كي يعلن للعالم نجاح الفكرة وينعم بالثراء.. لذا قام باختطافكما وأجرى التجربة عليكما من دون علمي!!.. ثم وضعكما في مجسم المدينة الصغيرة الذي صنعه مع مجموعة من المهندسين منذ شهور قليلة من دون علمي أيضاً!!.. بالطبع أغضبني تصرف مساعدي كثيراً.. مما جعلني أطرده وأقطع علاقتي به.. عالماً أنه لن يتمكن من البدء بأبحاثه بنفسه.. إنه مجرد مساعد.. وللأسف.. لا أستطيع أن أشكوه للشرطة.. سيظنونني أخرف!!.. وحتى لو جئتُ بالشرطة إلى هنا لأثبت كلامي.. ستتحولان إلى فئران تجارب.. ولا أرضى أن يكون هذا مصيركما!!.. وللأسف يا بني.. لا يمكن إعادتكما إلى حجمكما الطبيعي في هذا الوقت.. لم أتوصل للطريقة حتى الآن!!.

كنا نتنفس بعنف بسبب الغضب والتوتر والخوف.. فقلتُ له بحنق:

-وكيف كنت ستثبت نجاح تجربتك اللعينة هذه إذا لم تكن ستقدمنا إلى العالم كدليل؟!.

قال بحزن:

-لقد انتبهتُ إلى حقيقة مخيفة لم تطرأ في ذهني حين بدأتُ تجاربي.. وهيَ أن البشرية ربما لن تستفيد من اكتشافي هذا كما أتمنى.. فقد تستغله إحدى الدول للسيطرة على العالم.. تخيَّلْ أن تأتي دولة وتقوم بتقليص جيش دولة معادية بأكمله.. حينها يمكنك إبادة جيش الدولة المعادية هذه بأن تدوس عليه بقدمك فحسب!!!.. ستكون أقصر حرب في التاريخ.. هل فهمتَ خطورة اكتشافي؟!.. لقد أخبرتُ مساعدي بذلك.. وفضلتُ إتلاف كل شيء.. لهذا تصرفَ من دون علمي.. وأجرى التجربة عليكما كي يقنعني بالمضي قدماً وبالإعلان عن هذا الاكتشاف في وسائل الإعلام.

سكتُّ طويلاً.. لأقول بألم:

-أينَ نحن الآن؟!.. ماذا عن حياتنا السابقة؟!.. ماذا عن عائلاتنا؟!.. مستقبلنا؟!.. أنت حكمتَ علينا بالسجن المؤبد هنا.. فحتى هروبنا لن يجدي!!.

ردَّ بحرارة:

-لقد أخرجتُ مجسم المدينة الصغيرة من المختبر.. وجئتُ به إلى بيتي.. لن تكونا لوحدكما أبداً.. سأكون معكما طوال الوقت.. وقد طلبتُ من حفيدتي أن تهتم بأمركما لو حدثَ لي أي مكروه.. إنها تعرف أسراري كلها.. أعلم أنكما الآن في سجن.. لكنكما على الأقل في مأمن من شرور العالم.. ولن يمسكما أي سوء.. كما أن تقليص حجمكما بيّنَ لي حقيقة أخرى.. أنكما لن تصابا بأي أمراض.. لقد أصبحتما بقوة الحشرات.. الفارق أنكما بشر.. وأعدكَ أنني سأظل أُجري أبحاثي حتى آخر نفس لديَّ.. ربما أتمكن مستقبلاً من إعادتكما إلى حجمكما الطبيعي.. أتمنى أن أعثر على الطريقة.. أتمنى!!.

التفتُّ سريعاً إلى (دلال).. لأجدها تنظر إليَّ بضياع.. ثم تلقي برأسها على كتفي وهي تبكي بحرقة.. في حين سألتُ الرجل بانكسار:

-لماذا فقدنا ذاكرتنا؟!.. لماذا لا نتذكر كيف جئنا إلى هنا؟!.. نحن لا نتذكر أن مساعدكَ قام باختطافنا أصلاً!!.

تنهدَ وهو يقول:

-أعتقد أنه قام بتخديركَ في الشارع بواسطة غاز منوم.. في حين دخل سريعاً خلف الفتاة في ساحة

بيتها الداخلية.. واستخدم الغاز ذاته.. لقد فعل هذا في اليوم نفسه.. لذا أظن أنك والفتاة من المنطقة السكنية نفسها بالمناسبة.. وربما من الحي نفسه أيضاً.. أما بخصوص ذاكرتكما.. فربما استخدام الغاز المنوم أثرَ عليها قليلاً.

يا إلهي!!.. نعم.. لقد أنعشَ ذاكرتي بالفعل.. أتذكر الآن أن أحدهم وقفَ أمامي مبتسماً أثناء عودتي إلى بيتنا.. ورشَّ شيئاً على وجهي.. أسمع همهمة من (دلال).. فالتفتُ إليها سريعاً.. لأجد على وجهها علامات التذكر أيضاً.. ثم.. نظرتُ نحوَ الرجل.. وقلتُ بتوسل:

-والآن ماذا؟!.

أجابَ مبتسماً بودّ:

-هذه المدينة بأكملها لكما.. إنها مقامة في علبة زجاجية بحجم حوض السمك.. ستعيشان فيها بأمان من كل شيء.. فحتى الحشرات عاجزة عن التسلل إليكما.. ولحسن الحظ أنكما معاً.. لن يشعر أيٌّ منكما بالوحدة.. وسأقوم بتوفير الغذاء لكما باستمرار.. مع وسائل الراحة كلها.. وحفيدتي ستساعدني في ذلك.

قالها وهو يلتفتُ لمن جاء كي يقف بجانبه.. فتاة في مثل عمري.. عادية الحجم بالنسبة لكم.. أما بالنسبة لنا فبدت عملاقة.. أراها تنظر إلينا بحنان.. وخلفها الشمس.. أو.. ليست شمساً في واقع الأمر.. إنه مجرد مصباح في زاوية الحوض الزجاجي.. الآن انتبهتُ إلى هذا.. لم يكن من المنطقي أن أحدق به قبل الآن لأعرف ماهيته.. فلا أحد منا يحدق في الشمس كل يوم ليتأكد أنها الشمس وليست شيئاً آخر!!.. أما السماء فهي في واقع الأمر مجرد سقف خشبي تم طلاؤه بعناية فائقة مع غيوم تم رسمها بدقة كي تمنحنا الانطباع أننا في عالم حقيقي!!.

وعند هذا الكلام.. وقفتُ أمام (دلال).. شاعراً أنها كل ما أملك في عالمنا الصغير.. ويبدو أنها شعرت بالشيء ذاته!!.. إذ مددتُ يدي إليها.. لتمدَّ يدها بالمقابل.. وننظر معاً عبر النافذة.. وقد انتبهنا للتو أن هذه المدينة موجودة في غرفة عادية بالنسبة لكم.. لكنها هائلة الحجم بالنسبة لي ولـ (دلال).. وكأنها الكون ذاته!!.. سنستطيع التنقل هنا كما نشاء.. ونعيش في بأمان.. إنه عالمنا الجديد.. آملاً أن نصنع منه جنتنا الصغيرة.. بعد أن كان مكاناً غريباً.. غير مألوف!!.

بداية.. جديدة!!

أعود إلى رأس عملي في شركة والدي بعد إجازة تجاوزت الشهر.. الموظفونَ جميعُهم يرحبون بي ويظنون أنني قضيتُ وقتاً ممتعاً في إجازتي هذه.. لكن الواقع أنها كانت إجازة لمداواة جروحي.. بعد أن رحل (سعود).. كان هو فارس أحلامي.. وحبي الأول والأخير.. شاب من عائلة تفوق عائلتنا ثراء بكثير.. ورغم ذلك لم يمنعه الثراء من المضي لتحقيق طموحه.. فحصل على الدكتوراه في إدارة الأعمال.. وقام بتأسيس شركته الخاصة.. حيث كان الاتفاق أن يتقدم إلى خطبتي خلال الشهور القليلة القادمة.. لكن القدر لم يمهله.. إذ توفيَ في حادث سير.. وتحطمت معه أحلامي كلها.

كانت أياماً سوداء قضيتُها في البكاء والنحيب وفقدان الشغف بكل شيء.. رغم وجود والدتي بقربي طوال الوقت للتخفيف عني.. فهي الوحيدة التي علمتْ بأمر علاقتي بهذا الشاب وباركَتها.. من المؤلم بحقّ أن تقترب من تحقيق أجمل طموحك.. وأن ترتبط بمن تحب.. ثم ينتهي كل شيء فجأة!!.

لكن.. عليَّ الآن أن أتجاوز آلامي وأهتم بالعمل.. فرغم أنني أنتمي إلى عائلة مقتدرة مادياً تدير أعمالها الخاصة.. إلا أنني لم أكن مدللة أبداً.. تماماً كـ (سعود).. فقد تعلمتُ من والدي المثابرة والاجتهاد الدائمين.. قبل أن يقرر التنحّي بسبب تقدمه في السن.. ويتركني لأدير الشركة بالكامل مع شقيقتي.. كوننا لا نملك أي أشقاء.

تدور تلك الأفكار المتضاربة في ذهني وأنا أطّلع على مراسلات الشركة طوال فترة غيابي.. وأنهي بعض الأعمال في المكتب.. أحاول أن أفصل مشاعري عن عملي.. إلا أن الجميع لاحظوا أنني فقدتُ الكثير من وزني بعد كل ما مررتُ به.. لكنَّ أحداً لم يجرؤ على سؤالي عن السبب بالطبع.

كان اليوم الأول عادياً للغاية.. وقد ظننتُ أنني سأعود إلى حياتي التقليدية تدريجياً.. قبل أن يطرق السكرتير باب مكتبي ويخبرني أنَّ هناك شاباً يريدني لأمر عاجل للغاية.. لم يلفتْ كلامه انتباهي.. فغالباً ما يتعلق الأمر بشخص يطلب التوظيف في الشركة.. أو بمندوب من شركة ما ترغب في التعامل معنا.. لكن.. فوجئتُ بشاب شديد الأناقة يرتدي الزي الوطني.. حيث جلس على الكرسي المقابل لمكتبي.. ثم أخرج من جيبه هاتفاً ذكياً.. ليضعه أمامي وهو يقول:

-المعذرة.. اسمي (....).. لقد كنتُ صديق (سعود) رحمه الله وكاتمَ أسراره.. وقد أردتكِ أن تحصلي على هاتفه.. أنتِ أحق الناس به.

نظرتُ إليه باستغراب وقد راحت أنفاسي تعلو وتهبط بقوة.. وعيني تنظر بألم إلى الهاتف الذي ظلَّ (سعود) يتواصل معي خلاله طوال فترة علاقتنا.. ثم.. سألتُ الشاب بألم:

-هذا أول أيام عودتي إلى العمل بعد إجازة طويلة.. كيف عرفت أنني سأعود اليوم تحديداً؟!.

ردَّ بتعاطف:

- لقد سألتُ السكرتيرة عنك منذ أكثر من أسبوع.. فأخبرتني أنك ستعودين إلى العمل اليوم.. المعذرة لأنني أردتُ أن أسلمك الهاتف بنفسي.. تعلمين جيداً أن هواتفنا في هذا الزمن أصبحت كاتمة كل أسرارنا.. وشعرتُ أن من حقكِ الحصول عليه كونكِ كنتِ أقرب الناس لـ (سعود) رحمه الله.

شعرتُ أنني أعود إلى نقطة الصفر.. فاغرورقت عيناي بالدموع وأنا أمسك بالهاتف.. كم أفتقدك!!.. كم أشتاقُ إليك!!.. أتذكر أنه أخبرني بأمر صديقه هذا.. لكني لم أقابله من قبل.. و.. مهلاً.. سألته فجأة:

-كيف حصلتَ على هاتفه؟!.

ابتسم بحزن وهو يقول:

- كنتُ معه في السيارة أثناء الحادث!!.. حيث تعرضتُ بدوري إلى بعض الرضوض والجروح السطحية في أماكن متفرقة من جسدي.

غمغمتُ بتعاطف:

-يا إلهي!!.. هذه صدمة قاسية جدا!!.

تنهدَ بعمق.. ثم قال:

-كنت أقول أن (سعود) -رحمه الله- ترك عندي هاتفه قبل الحادث بقليل، لكي أقوم بشحنه من خلال الشاحن المتنقل الخاص بي.. فوضعتُ الهاتف في حقيبتي موصلاً بالشاحن.. ونسيتُ كل ما يتعلق بشأنه مع كل ما عشتهُ من أهوال في ذلك اليوم المشؤوم.. والآن.. المعذرة.. علي الرحيل.. تنتظرني الكثير من الأعمال.

قالها وهو يتنحنح ويستأذنني للمغادرة من دون أن يشرب شيئاً.. وقد ترك عندي بطاقة العمل الخاصة به كنوع من الاحتياط لو أردتُ التواصل معه لاحقاً لأي سبب.. لكني أوقفته فجأة لأسأله:

-المعذرة.. لكني أجدُ تصرفك غريباً.. ماذا لو تمكنتُ من معرفة الرقم السري لهاتفه والبحث في ملفاته؟!.. وكأنك تريد أن تكشفَ لي أسرار (سعود) كلّها!!.

قال ببساطة مزقت قلبي:

-لم يخف عنكِ أي شيء.. أنا واثق من ذلك.. لقد كان -رحمه الله- مثالاً للاستقامة وللجدية في العمل.

غمغمَ بكلمات وداع سريعة.. ليخرج من مكتبي ويتركني أمام هاتف فارس أحلامي الذي رحل عن عالمنا.. أما أنا.. فظللتُ أحدق في الشاشة بشرود.. أرى انعكاس وجهي الحزين.. لأضغط بعدها على الزر الذي يفتح الهاتف.. لكن بطاريته خاوية كما تبدو.. أوصلتُ إليه سلك الشاحن.. وجلستُ أنتظر لحظات.. ليعمل أخيراً.. وبالطبع.. هناك كلمة سر.. ما هي يا ترى؟!.. وما هو سر هذا الفضول الذي سيطر عليَّ في لحظات؟!.. أم أنه فضول فطري نجدهُ عند كل إنسان؟!.. لا أعلم.. ثم.. تذكرتُ أنني طلبتُ من (سعود) ذات مرة أن يثبت لي حبه.. فابتسمَ وهو يخبرني أن كلمات السر جميعها التي يستخدمها ترتبط بعيد ميلادي!!.

وهذا ما جعلني أضغط على الأرقام التي تشكل سنة مولدي.. لا يمكن.. هذا لا يصدق!!.. هل يعقل أن تكون الأمور بهذه السهولة؟!.. الرقم السري هو سنة مولدي بالفعل.. لا أنكر أن عينيَّ اغرورقتا بالدموع مرة أخرى.. لقد كان يحبني بحق.. لم يخدعني أو يضحك عليَّ يوماً.. إنه صادق حتى في هذه التفاصيل الصغيرة!!.. أقول هذا الكلام لنفسي وأنا أتصفح رسائله في وسائل التواصل الاجتماعي من دون أن أجد فيها ما يُريب.. ثم أمرُّ عبر محادثاتنا السابقة.. إنه يحتفظ بها كلها..

مما أشعل الذكريات في رأسي وجعلني أتصل بالسكرتيرة أطلب منها ألا تسمح لأحد بدخول مكتبي خلال الساعة القادمة.. لأنخرط في النحيب وكأنني علمتُ بنبأ وفاة (سعود) للتو!!.

هدأتُ قليلاً.. ثم بدأتُ أبحث في ألبوم الصور.. لأجد صوراً عديدة له.. ولأصدقائه.. وأفراد عائلته.. قبل أن تستوقفني تلك الصورة تحديداً.. حيث كان (سعود) واقفاً أمام بيت قديم جداً ومهجور على الأرجح.. فرحتُ أسترجع كلامه لي.. حين تحدثَ عن شراء بيت في منطقة (النزهة) التي تعدُّ إحدى أرقى المناطق السكنية في (الكويت).. على أن يقوم بهدمه وبينائه من جديد وفق ذوقي.. فهل هذا البيت هو الذي كان يقصده؟!.. لم يعد ذلك مجدياً الآن.

أخذتُ هاتفه إلى البيت.. حيث تركتهُ في غرفتي وأهملته بضعة أسابيع انشغلتُ خلالها بدوران عجلة حياتي الطبيعية.. قبل أن يحدث تغيير جديد غير متوقع.. حين جلستُ على فراشي في تلك الليلة.. وقد شعرتُ بالحنين الشديد ل. (سعود).. فأمسكت هاتفه للمرة الثانية.. أتصفح كل شيء فيه.. لأجد أن هناك رسائل حديثة من أشخاص لم يعرفوا بموته ربما.. مجرد رسائل من تلك التي نتلقاها عبر هواتفنا يومياً.. ثم.. انتبهتُ إلى وجود رسالة في بريده الإلكتروني من مرسل مجهول.. لم أظنها شيئاً مهما في بادئ الأمر.. لكني كنتُ مخطئة!!.. فحين استعرضتُها.. اكتشفتُ أنها تحوي صوراً عديدة التقطتْ من عدة زوايا للبيت المهجور نفسه!!.. مما أثار استغرابي كثيراً.. خاصة وأن تاريخ الرسالة يعود إلى أيام قليلة مضتْ.. أي بعد وفاة (سعود).. ترى.. هل طلب من أحدهم أن يلتقط تلك الصور للبيت؟!.. ولماذا؟!.. أرسلتُ رسالة إلى البريد الإلكتروني ذاته.. أسأل عن هوية المرسل.. لكن لم يصلني أي رد طوال الأسبوع التالي.. وبالمقابل.. ظلت صور البيت تصلني من دون توقف.

فاتصلتُ بصديق (سعود).. وأخبرتهُ عن الرسائل التي تصلني بانتظام عن ذلك البيت.. وأرسلتُ له بعض الصور ليرى بنفسه.. إلا أنه أبدى حيرته وجهله بمُرسل هذه الرسائل.. وليت الأمور توقفت عند هذا الحد.. فقد استمرت الصور بالوصول إلى بريد (سعود) الإلكتروني في الأيام التالية.. والأغرب أن بعضها كانت للبيت من الداخل!!.. مَن الذي يزور بيتاً مهجوراً ليلتقط له صوراً من الداخل أيضاً؟!.. فبيتٌ كهذا يستحيل ترميمه.

حسناً.. هناك أفكار جنونية لا يمكن أن تطرأ في أذهاننا بين ليلة وضحاها.. بل تحتاج إلى استيعابها أولا.. ثم تقبلها.. أتحدثُ عن تلك الفكرة التي ظلت تطل برأسها عليّ في كل مرة تصل فيها رسالة إلى بريد (سعود) الإلكتروني.. إنَّ الصور التي تُرسل هي في واقع الأمر رسائل من (سعود) نفسه.. من العالم الآخر.. عالم الموتى!!!.. أعلم أن هناك تفسيرات أخرى أكثر بساطة.. لكن.. يبدو أننا حين نفقد شخصاً غالياً.. فإننا نعيش بعض الأوهام والأحلام المستحيلة.. إلا أنَّ هذا لم يمنعني من اتخاذ قراري.. فقد عقدتُ العزم على البحث عن ذلك البيت.. نعم.. سأبحث عنه.. وأدخله.. علّي أعثر على جوابٍ لأسئلتي!!.. خاصة بعد أن أرسلتُ العديد من الرسائل إلى البريد الإلكتروني نفسه أسأل مرسلها عن هويته.. وأحياناً أهدده بإبلاغ الشرطة.. لكنه لم يفصح عن نفسه أبداً!!.

بدأتُ رحلة البحث عن البيت بعد حوالي شهرين من حصولي على هاتف (سعود).. فكنتُ يومياً بعد السادسة مساء.. أذهب بسيارتي وأدخل أحياء منطقة (النزهة) جميعها.. لحسن الحظ أنها منطقة صغيرة.. ولن يتطلب تمشيطها وقتاً طويلاً.. هذا إذا كانت الصور فعلياً لبيت في هذه المنطقة!!.. وقد كانت المفاجأة حين عثرت على البيت في اليوم الخامس فحسب من عملية البحث.. حيث بدا مظلماً موحشاً.. على عكس البيوت الفاخرة حوله.

جلستُ في سيارتي أتساءل عن الخطوة التالية.. هل أدخل البيت؟!.. لستُ من الفتيات اللاتي يخشينَ الظلام.. ربما دخوله الآن أفضل بالفعل.. خاصة وأن الأجواء حارة جداً في الفترة الصباحية.. أم أنني فقط أبحث عن العذر لأقدمَ على مغامرتي في هذه اللحظة تحديداً؟ ؟!.. وقبل أن أتخذ القرار.. فوجئتُ برسائل عديدة تصل إلى البريد الإلكتروني لهاتف (سعود)!!!.. وكلها تقريباً تحتوي على صور تم أخذها من سطح البيت.. هل هي إشارة لي؟!.. الصور تنهال على الهاتف من دون توقف.. حتى بدا صوت استقبالها مزعجاً.. فوضعتُ الهاتف في حقيبتي.. ونزلتُ من السيارة.

لا أعلم إن كان شيءٌ كهذا ممكناً.. فقد كان قلبي يخفق ويرتجف في الوقت نفسه.. أشعر وكأنني على وشك العثور على إجابة لتساؤلاتي كلها.. هذه الصور لم تصلني في هذه اللحظة وبهذه الغزارة على سبيل الصدفة.. صاحبها يعلم أنني هنا.. أو قد تكون حماقة مني.. لكن يجب اتباع حماقتي هذه إلى النهاية!!.. هذا ما شجعني على السير لأدخل عبر البوابة الخارجية المفتوحة.. وأجد نفسي في الساحة الداخلية التي امتلأت بالأتربة والقاذورات.. فعبرتُ هذا كله متجهة إلى داخل البيت.. ما قصة البيت يا ترى؟!.. إنه يساوي مبلغاً باهظاً.. فلماذا انتظرَ أصحابه ولم يقوموا ببيعه حتى الآن؟!.. لعلَّ صاحبه رجلٌ ثريٌّ للغاية وليس بحاجة لبيعه؟!.. ربما.

أدخلُ الغرف جميعها مستدلّة بكشاف هاتفي.. لا أجدُ شيئاً يذكر.. فأستمر في السير رغم ذلك.. وأصعد إلى سطح البيت.. الهواء الحار يلفحُ وجهي.. ألتفتُ وأبحث عن أي شيء غير عادي.. مهلاً.. هناك رسالة وصلت للتو إلى هاتف (سعود)!!.. فأخرجتهُ من حقيبتي ودخلتُ إلى بريده الإلكتروني بسرعة.. لأجد هذه المرة تصوير (فيديو) لخطوات شخص يسير على السطح متجهاً إلى جانب مكسور منه.. ثم.. يا إلهي!.. إنه يرمي بنفسه من الأعلى.. لا أرى سوى كاميرا الهاتف وهي تهتز بيده وتصطدم بقوة في الأرض!!.

التفتُّ حولي بقلق وقد بدأ الرعب يسيطر عليّ.. لأرى ذلك الحاجز المكسور الذي رأيته للتو في ال (فيديو).. فاتجهتُ ناحيته بأقدام ترتجف.. أنظر إلى الأسفل.. هل يريدني (سعود) أن أنهي حياتي؟!.. هل يريدني أن أتبعه؟!.. ثم.. ارتجَّ جسدي بأكمله حين سمعتُ أحدهم يصيح:

-ماذا تفعلين هنا؟!.

قالها وهو يمسك بي بسرعة قبل أن أفقد توازني من قوة المفاجأة.. ليزيحني جانباً بعيداً عن الجزء المكسور من السطح.. ويبتعد عني وهو يلوح بيده طالباً مني أن أهدأ وألا أرتكب أية حماقة!!.. تطلبَ الأمر بعض الوقت لأعرف هوية الشخص.. إنه شاب.. نحيل الجسم.. دقيق الملامح.. وسيم إلى حد ما.. يرتدي ثياباً رياضية.. من هو؟!.

ظللتُ أنظر إليه وكأنني أنتظر منه توضيحاً.. ليقول بسرعة:

-المعذرة.. كنتُ.. كنتُ في الجوار.. ورأيتكِ بالصدفة.. بصراحة.. أثار فضولي دخول فتاة وحيدة إلى بيت مهجور كهذا.. فتتبعتكِ إلى الداخل!!.

قالها.. لتصل رسالة أخرى إلى هاتف (سعود).. فتحتُها على عجالة بعد أن بتُّ على يقين أنه يتواصل معي من عالم الموتى.. لأجد وجوهاً مبتسمة هذه المرة.. ما الذي يعنيه هذا؟!.. وكأنني وصلتُ إلى المحطة المنشودة.. و:

-هل أنتِ بخير؟!.

أعادني الشاب إلى عالم الواقع.. فنظرتُ إليه للحظة.. ثم غمغمتُ أنّ نعم.. ليسألني مرة أخرى:

-المعذرة على السؤال.. لكن.. ماذا تفعلين هنا؟!.

قلتُ بشيء من الحزن:

-لا يهم.. إنني بخير.. أشكركَ عموماً!!.

يبدو أن إجابتي لم تعجبه.. فقال مبتسماً محاولاً فتح مجال للحديث وهو يتأملني:

-موقع البيت رائع بالمناسبة.. كم أتمنى لو كنتُ أمتلك المال لشرائه.. بإمكاني أن أهدمه وأن أقوم ببنائه مرة أخرى لأجعل منه قصراً!!.

لم أهتم كثيراً لكلامه.. فأومأتُ برأسي بشرود.. لكنه أكمل قائلاً:

-مهما كان البيتُ فخماً.. لا بدَّ من المحافظة على أجوائهِ الحميمة.. هذه طبيعتي.. لا أحب البذخ حتى لو كنتُ ثرياً.. فالبذخ يفسد روعة الأشياء.. الجمال دائماً في البساطة!!.

التفتُّ إليه بحدة.. فشعرَ بالحرج ظناً منه أنه أخطأ في حقي.. لكن.. هذه الكلمات تحديداً.. ((البذخ يفسد روعة الأشياء.. الجمال دائماً في البساطة)).. لقد كان (سعود) رحمهُ الله يرددها طوال الوقت.. هل قادني بنفسه إلى هنا لألتقي بهذا الشاب؟!.

الشاب يتنحنح وقد بدا متردداً للغاية.. ليقول:

- المعذرة.. هل.. هل من الممكن أن تشربي القهوة معي؟!.. بإمكاننا الذهاب إلى مقهى (ستار بكس).. إنه هنا.. في منطقة (النزهة).

غمغمتُ باستغراب من هذه الدعوة الصريحة من شاب لم ألتقِ به من قبل:

-وهل من عادتكَ أن تدعو أية فتاة لا تعرفها إلى شرب القهوة؟!.

ابتسمَ بحرج وهو يقول:

- أبداً.. لكن في النهاية.. أشعر أنني التقيت بك هنا لسبب ما.. ثم أنه مجرد كوب من القهوة.. وساعة من وقتك.. إلا إذا كنتِ منشغلة.

نظرتُ إليه مرة أخرى.. وتذكرتُ الرسائل التي وصلتني.. والابتسامات التعبيرية التي ذكرتني بألعاب الفيديو التي نقطعُ فيها أشواطاً طويلة.. ثم نصل إلى المرحلة الأخيرة لنجدَ الجائزة في انتظارنا.. فهل هذا الشاب جائزة (سعود) لي؟!.. ربما.. خاصة وأن الرسائل توقفت تماماً!!.. تفكير منطقي جداً.. أو مجرد صدف صنعَ منها عقلي قصة لا أساسَ لها.. في الأحوال كلّها.. سأمنح الشاب فرصة.. ولنرَ!!.

****

ومن دون أن تنتبه بطلة قصتنا.. اتسعت ابتسامة الشاب فرحاً بنجاح خطته وهو يقود سيارته متجهاً إلى المقهى.. إنه يشعر بالانجذاب الشديد نحو بطلة قصتنا منذ مدة طويلة.. فهو موظف في شركة (سعود).. لكنه كان يعلم أن فتاة مثلها لن تلتفت إليه أبداً بسبب الفارق الاجتماعي الهائل بينهما.. حتى لو كانت غير مرتبطة بأي شخص.. رغم أنه لا يطمع أبداً بأموالها.. بل يحبها فحسب.. وقد أبقى حبها في قلبه من دون أن يخطو خطوة واحدة نحوها.

وبعد الحادث بفترة بسيطة.. واتته فكرة غريبة جداً.. إذ اشترى هاتفاً مستعملاً لينقل إليه كل بيانات (سعود) الموجودة على جهاز الكمبيوتر الخاص به.. ولم يكن الأمر سهلاً بوجود أرقام سرية.. لكنه فك شيفرتها مستغلاً خبرة أحد خبراء الهواتف الذكية.. ثم جعل أحد أقاربه ينتحل شخصية صديق (سعود).. ليأتي إلى بطلة قصتنا بالهاتف.. ليبدأ بعدها بإرسال الصور من دون توقف.. كان يريد أن يرسخ لديها قناعة أن حبيبها الميت هو من قادها إلى هذا البيت ويريدها أن ترتبط بهذا الشاب.. ويبدو أن بطلة قصتنا ابتلعت الطعم حتى هذه اللحظة.. والأيام ستبين إن كان ذلك الشاب سيتمكن من الارتباط بها.. ويصنع لها بداية.. جديدة!!.

المستحيل.. من أجل الحب!!

جالساً في مقهى (كوستا) في منطقة (كيفان).. أقرأ إحدى الروايات التي ظللتُ أؤجل قراءتها منذ زمن.. فيبدأ الشعور بالندم ينتابني تدريجياً.. بعد أن اكتشفتُ ركاكة الأسلوب وضعف الحبكة.. والبطء الشديد في سير الأحداث.. لأكتشف أن سبب شهرتها يعود فقط إلى شهرة صاحبها الذي يعد أحد نجوم وسائل التواصل الاجتماعي.

أضعُ الرواية جانباً من دون أن أكملها.. وأبدأ بالعبث في هاتفي قليلاً وأنا أنظر حولي بين حين وآخر.. ثم.. أتسمر في مكاني فجأة.. حين دخلتْ الملائكة.. وأعني بذلك تلك الفتاة.. فتاة رائعة الملامح.. بيضاء البشرة.. قصيرة القامة والشعر.. هشة جداً كما بدت لي.. ترتدي البنطال الأمريكي الأزرق وقميصاً أسودَ زاد من فتنتها.

كانت تسير ممسكةً بيد ولدها الذي يحمل الكثير من ملامحها والذي لم يتجاوز عمره السادسة كما بدا لي.. ظللتُ أحدق فيها لا شعورياً.. ويبدو أنها شعرت بذلك.. فرمقتني بنظرة صارمة سببتْ لي بعض الإحراج.. لأطرقَ برأسي أرضاً بخجل شديد.. لا شك أنَّ الكثيرين غيري رمقوها بتلك النظرات.. فلماذا ستلتفتُ إليّ؟!.. هذا ما قلته لنفسي بشيء من الألم.

شعرتُ للحظة أن قلبي بدأ يذوب.. وأنني لا يمكن أن أرحل من هذا المكان قبل أن أتحدث إليها.. فرفعتُ رأسي مرة أخرى.. وبدأتُ أنظر إليها بشيء من الحذر.. لأراها تشتري القهوة لنفسها وبعض الحلوى لولدها.. ثم تذهب معه إلى طاولة بعيدة نسبياً عني.. حينها فقط انتبهتُ لهذه الحقيقة المروعة.. أن ولدها ضرير!!!.. نعم إنه ضرير.. لم أنتبه لذلك إلا حين رأيتُ عينيه تبحران في الظلام وهو يتحسس المقعد الذي اختارتهُ له والدته!!.. هل أستغلُّ مهنتي كطبيب عيون وأذهب للتحدث إليها؟!.. وماذا عن زوجها؟!.. أين هو يا ترى؟!.

جلستُ أفكر وأعصابي تلتهمُ نفسها من فرط اللهفة.. إلى أن حسمتُ الأمر.. ونهضتُ من مكاني متجهاً إليهما.. ثم:

-مرحباً.. المعذرة على إزعاجكما.. إنني طبيب عيون.. وقد رأيتُ ولدك.. على الأرجح أنكِ فعلت كل ما بوسعك لعلاجه.. لكن لن يضر لو سمحتِ لي بفحصه أيضاً.. ما رأيك؟!.

نظرت إليَّ بتردد يشوبه بعض الانكسار.. ثم تمالكت نفسها لتقول بحزم:

-لقد قام بفحصه أفضل أطباء العيون في (الكويت).. كما أنني أخذته إلى (ألمانيا) على نفقة الدولة.. لكن من دون جدوى.. فحالته لا علاج لها للأسف.

تنهدتُ.. ثم قلتُ برجاء:

-لماذا لا تزوريني في عيادتي؟!.. دعيني أفحصه بنفسي.. أعرف أنني صغيرٌ في السن.. لكن.. من يعلم ما سيحدث؟!.. ربما أتمكن من مساعدته.

هزت رأسها نفياً بإصرار في حين يستمع إلينا الصغير من دون أن يبديَ أية ردود أفعال.. وكأنه اعتاد حديثاً كهذا.. فسألتها مستغرباً:

-إنني أحاول مساعدته.. لماذا ترفضين؟!

قالت بحدة وهي تنظر إلى ولدها الذي كان يأكل قطعة الحلوى:

- وما الذي أحاول أن أفعله أنا؟!.. أدمر ولدي؟!.. لا أريد من أحد أن يمنحني أملاً زائفاً.. لقد مللتُ.. جميعهم يلهثون خلفي.. فيجدون أن أفضل وسيلة لجذب انتباهي هي من خلال ولدي!!.

إنها توجّه إهانة غير مباشرة لي.. لكنها إهانة صادقة إن صح التعبير.. فهذا سبب تطفّلي عليها أيضاً.. ترى.. كيف سأجذب انتباهها؟!.. للأسف لا أعلم.. بل ولا أعلم حتى إن كانت متزوجة أم مطلقة.. فسألتها:

-لماذا لم يسعَ زوجكِ لأخذه إلى مستشفيات في دول أخرى؟!.. لا يمكنكم اليأس أبداً.

يبدو أن سؤالي أغضبها.. إذ التفتتْ إليَّ وهي تقول بشيء من القسوة:

-إنه سؤال متعمد وملغوم.. القصد منه معرفة إن كنتُ متزوجة أم لا!!.. إنني منفصلة.. وطليقي لا يمنح ولده أي اهتمام للأسف.. بل يكتفي فقط بالحوالات المالية التي يرسلها إلينا ظناً منه أنه بهذه الطريقة يؤدي دوره كاملاً كأب.. لكن هذا لا يعني أنني بحاجة إلى رجل في حياتي إن كان هذا ما تتمناه!!.

قالتها وهي تنظر إلى ولدها الذي بدا وكأنه سمع مثل هذا الكلام كثيراً أيضاً.. حسناً.. لقد أغلقت في وجهي كل الأبواب للأسف.. إنها لا تريد حتى منحي الفرصة.. لكني ألقيتُ بورقتي الأخيرة وأنا أشعر بغصة في قلبي.. حين أخرجتُ بطاقة العمل ووضعتها أمامها على الطاولة.. ثم قلتُ:

-هذه بطاقتي.. وفيها أرقام عيادتي.. بإمكانك الاتصال لو غيرتِ رأيك.. فربما أستطيع مساعدتهُ.. صدقيني سأبذل كل جهدي.

لم ترد على كلامي.. فتركتُ البطاقة أمامها.. وخرجتُ عائداً إلى البيت ظناً مني أنني لن أرى هذه الفتاة مرة أخرى.. وأنها على الأرجح سترمي بطاقتي في أقرب سلة مهملات.. ولا ألومها في الواقع على سوء معاملتها.. لا شك أن الكثيرون غيري حاولوا كسب ودها.. ولا أعرف إن كان يتوجب أن ألوم الشباب.. فكيف لأحد أن يرى هذا الجمال كلهِ ولا يتمناه؟!.

مرت الأيام وقد نسيتُ كل ما يتعلق بشأن الفتاة.. فكنتُ أقضي وقتي في مستشفى (البحر) للعيون صباحاً.. وفي عيادتي الخاصة مساء.. مع بعض الأفكار التي تزاحم عقلي بين حين وآخر.. كاستكمال دراستي في السنوات القليلة القادمة.. والتفكير بالزواج أيضاً.. بعد أن تجاوز عمري ال 30.. وبتُّ أشعر برغبة قوية أن تكون هناك فتاة تهتم لأمري وتسير معي في مشوار الحياة.. كنتُ أنتظر الحب.. عالماً أنني لن أعثر عليه أبداً.. بل سيأتي بنفسه كما يحدث دوماً.

بعد حوالي شهرين من تلك الحادثة.. كنتُ في عيادتي أنتظر دخول المريض التالي.. لأفاجأ بالممرضة وهي تدخل بصحبة فتاة رائعة الجمال.. إنها هي.. الفتاة ذاتها!!.. حيث علمتُ من ملف ولدها في عيادتي أن اسمها (غدير) كونها ولي الأمر.. فخفقَ قلبي بقوة وأنا أنهض من مكتبي مرحباً بها بحرارة وقد عادت لحظات لقائها الأول إلى ذاكرتي مباشرة.. في حين ردتْ هي التحية بشيء من الحزن.. ليمدَّ ولدها يده إلى الفراغ طالباً مصافحتي.. فصافحته بحماس مرحباً به أيضاً.. ثم طلبتُ منهما الجلوس.. و:

-المعذرة على سوء معاملتي لكَ في المرة السابقة.. فقد يئستُ تماماً من علاج ولدي.. ولم أعد أقوى على احتمال أي أمل زائف.. لكني وجدتُ بطاقتك في محفظتي منذ أيام قليلة.. لقد أخذتُها معي بعد أن تركتَها لي في ذلك اليوم.. وتذكرتكَ.. بصراحة.. خشيتُ أن ألوم نفسي فيما بعد كونكَ

عرضتَ مساعدتك وأنا رفضتُ.. لذا جئتُ بولدي.. ولن تحتاج لفحصه من جديد.. فهذا ملفه كاملاً يشرح كل شيء عن حالته.

قالتها وهي تضع على الطاولة ملفاً متخماً بالأوراق.. لتردفَ هامسة:

-لا يمكن أن تتخيل صعوبة الأمر على امرأة تتحمل مسؤولية طفل ضرير من دون أية مساعدة من طليقها.. لكنه ولدي في النهاية.. إنني أفديه بحياتي.

ابتسمتُ لكلامها.. لا أفهم شعور الأم أو الأب كوني لم أتزوج بعد وبلا أبناء بطبيعة الحال.. لكني طمأنتها وأكدتُ لها أنني سأفعل المستحيل لأجل ولدها الذي سألته عن اسمه.. ليقول وهو ينظر إلى الفراغ كعادته:

-(بدر).

ابتسمتُ.. ورحبتُ به مجدداً.. ثم أمسكتُ بالملف.. وبدأتُ بقراءة بعض التحاليل والنتائج.. حسناً.. يجب أن أعترف.. فالحالة ميئوس منها كما كنتُ أخشى وأتوقع.. لكني لم أخبرْها بذلك.. بل طلبتُ منها أن تسمح لي بفحص (بدر) بنفسي.

وبالفعل.. قمتُ بإجراءات الفحص الذي استغرق أكثر من ساعة.. إلى أن شعر المسكين بالإرهاق وأخبرَها أنه يريد العودة إلى البيت.. حينها نظرَت إلي (غدير) بألم.. وقالت:

-لهذا لا أتعلقُ بأية آمال زائفة.. لقد تعبتُ.. وتعبَ (بدر) أكثر مني.

لم أجد ما أقوله لها بعد أن جاءت الفحوصات مطابقة تماماً لما قرأته في الملف.. مما جعلها تنهضُ من مكانها وتأخذ ولدها معها.. لن أتوسل أكثر.. فلا يوجد ما يمكنني تقديمه لها كون العصب البصري لـ (بدر) مدمراً تماماً للأسف.. سأفكر لاحقاً بطريقة لمساعدتها.. ولا أنكر أنني شعرتُ بشيء من السعادة حين تذكرتُ أن موظفة الاستقبال تملك معلومات (غدير) كاملة الآن مع رقم هاتفها.. أي بإمكاني التواصل معها متى شئتُ.

كانت الأيام التالية صعبة للغاية.. عودة هذه الفتاة إلى حياتي جعلتني أتعلق بها بطريقة غريبة.. إنني رجل ناضج.. وأكاد أقسم أن قلبي لم يتعلق بأية فتاة من قبل.. فهل هو حب؟!.. هل يعقل أن أكون قد أحببتُها بعد لقاءين فقط؟!.. هل ما يحدثُ لي هو ما يطلقون عليه كلمة (النصيب)؟!.. أتمنى أن تكون هذه الفتاة (قسمتي ونصيبي) !!.. ولهذا السبب تحديداً.. تواصلتُ معها بعد بضعة أيام عبر وسائل التواصل الاجتماعي لأسأل عن حالها.. وأخبرها أنني ما زلتُ أبحث عن طريقة لمساعدة ولدها.. وقد كنتُ صادقاً في ذلك.. رغم أن كل المراجع التي قرأتها تقول أن الطب لم يتوصل بعد إلى علاجه.. فتجيبني بتحفظ وبجدية متمنية لي التوفيق.. وكأنها شعرت بالملل بالفعل من ملاحقة الرجال لها.

حينها علمتُ أن الطريق إلى قلبها سيبدأ من الاهتمام بولدها.. وليس فقط من خلال التقدم رسمياً لخطبتها.. وهذا ما جعلني أقضي لياليَ سوداء أفكر في حلّ.. فدرستُ العين البشرية مجدداً بدقة شديدة.. وقرأتُ الكثير.. وشاهدتُ العديد والعديد من الأفلام الوثائقية.. أكثر مما فعلتُ في كلية الطب ربما.. خاصة وأنني بحاجة إلى ما هو خارج نطاق دراستي!!.. وقد كنتُ أشعر باليأس أحياناً.. لكني أعود وأواصل أبحاثي بحزم بعد أن أتذكر ملامح (غدير) وطفلها الملائكي.. وأذهب لأستشير زملاء المهنة في أكثر من دولة.. حتى بتُّ ساخطاً على البشرية بأكملها.. فقد أطلقوا الأقمار الصناعية إلى الفضاء.. وصنعوا أجهزة الكمبيوتر والروبوت.. وجعلوا العالم كله قرية واحدة

بفضل وسائل التواصل الاجتماعي.. ثم يعجزون عن إعادة البصر إلى صبي صغير!!!.

ولا أبالغ لو قلتُ أنني كرهتُ الضوء نفسه.. وتمنيتُ لو أننا نعيش في عالم مظلم لا نحتاج فيه إلى نعمة البصر!!.. حقاً إنَّ الضوء لغز.. فأوجهُ الحياة جميعُها تبحث عنه ولا تستطيع الاستغناء عنه.. سواء كانت تراه أم لا.. لقد عرفهُ الإنسان قبل كل شيء.. بل إنَّ المصريين القدماء والفرس عبدوا الشمس.. مصدرَ الضوء الأهم في عالمنا.

كنتُ أردد هذا الكلام لنفسي بين حين وآخر.. وأنا أشعر بسخط وبإحباط شديدين بعد جهود جبارة بذلتُها لم أحصل خلالها على نتيجة.. لأتذكَّرَ فجأة العبارة البديهية التي طرأت في ذهني ذلك اليوم.. أن جميع أوجه الحياة تبحث عن الضوء!!.. سواء كانت تراه أم لا.. فهذه العبارة تحديداً جعلتني أتذكر ما شاهدته في أحد الأفلام الوثائقية عن الديدان!!.

نعم.. فالديدان لا عين لها ([4]).. لكن لدى أجسادها حساسية مفرطة تجاه الضوء تجعلها تشعر به بسهولة.. إنها تخرج من مكامنها لو سلطنا عليها كشافاً قوياً.. في حين تمتلك الثديات -بما فيها الإنسان-حاسة البصر كما نعلم جميعاً.. لذا نجد أن أجسادنا لا تملك الحساسية ذاتها التي تملكها أجساد الديدان تجاه الضوء.. كيف سأستفيد من هذه المعلومة؟!.. ظللتُ أفكر أياماً طويلة.. قبل أن يطرح عقلي ذلك السؤال.. هل من الممكن تدريب جسم الإنسان على الإحساس بالضوء كما تشعر به الديدان؟!.

كانت هذه النقطة بمثابة طرف الخيط.. ونقطة الانطلاق في سبيل إيجاد العلاج لـ (بدر).. الأمر يستحق المحاولة.. ربما لن أنجح في إعادة بصره إليه.. لكني سأتمكن من نقله إلى مرحلة مهمة جداً في حياته!!.. لذا أرسلتُ إلى (غدير) رسالة نصية تحوي بعض كلمات الحماس والتحفيز.. وطلبتُ منها أن تأتي بـ (بدر) للضرورة لأنني على عتبات اكتشاف هام لم أبين لها تفاصيله كي لا تتهمني بالجنون.. إلا أنها رفضت في بادئ الأمر.. وأخبرتني أنها ستضطر للسفر لحضور دورة تدريبية مدتها 3 شهور تخصُّ جهة عملها.. وسيبقى ولدها مع شقيقتها كونه يحبها كثيراً ويحب اللعب مع أبنائها.. لكني لم أستسلم.. بل ظللتُ ألحُّ عليها.. وأؤكد لها أنني سأشرف على حالة ولدها طوال فترة سفرها.. وسأخصصُ له وقتاً لا يتعارض أبداً مع المدرسة.. لتقتنع أخيراً!!.

كانت هذه البداية.. حين زارتني شقيقتها في العيادة ذات يوم ومعها (بدر) بالطبع.. بعد أن قمنا بتحديد الموعد مسبقاً.. والواقع أنها لم تكن تقل جمالاً عن (غدير).. بل كانت تشبهها كثيراً في الحقيقة.. حيث رحبتُ بها.. ثم طلبتُ منها أن تتركني مع (بدر) لمدة ساعة.. وأن تنتظرنا في الاستراحة.

وحالما أصبح بمفرده معي.. بدأتُ الحديث معه بود محاولاً كسب ثقته.. وقد وعدته أيضاً -كنوع من التحفيز-أن أمنحه الحلوى أو لعبة جديدة في كل زيارة.. شرط أن يلتزم بالجدول المكثف الذي حددته له.. ولا يغيب أبداً.

قمتُ بعد ذلك بجلب كشاف كنتُ قد اشتريتهُ سابقاً.. ووضعته أمام (بدر) بعض الوقت على مسافة بعيدة نسبياً.. ثم انتقلتُ إلى الخطوة الأهم.. حين وضعتُ ورقة بلاستيكية شفافة حمراء اللون على الكشاف.. ليتحول الضوء إلى اللون الأحمر الذي تركته موجهاً نحوَ بشرة (بدر).. بعد أن طلبتُ منه الصمت التام والسكون في مكانه والتفكير بملمس الضوء على بشرته.. فبدا الأمر مستحيلاً للوهلة الأولى.. لكني ظللتُ أتحدث معه بعمق وبهدوء شديدين.. وأنا أطلب منه التركيز باستمرار ومحاولة استشعار الضوء على بشرته.. دون أن أخبره بلون الضوء.

لحسن الحظ أنه كان مسترخياً تماماً مستمتعاً بما يحدث.. وقد أسعدني ذلك كثيراً.. ثم وضعت ورقة بلاستيكية شفافة زرقاء اللون.. وبعدها لون آخر.. وآخر.. أحاول في كل مرة أن أجعل (بدر) يشعر بتغيير اللون على بشرته.. نعم.. فلكل لون طول موجي مختلف ([5]).. نحتاج فقط إلى التركيز الشديد كي نشعر به ونميزه.. أي أنني أهدف إلى جعل (بدر) يشعر بانعكاس الأضواء الملونة على بشرته.. أعرف أن الأمر صعب للغاية.. ونتائجه غير مضمونة.. لكني ظللتُ أعمل بصمت وبحماس شديدين.. لمساعدة (بدر) أولاً.. ولكسب قلب (غدير) ثانياً.. وهناك سببٌ ثالثٌ انتبهتُ له مع زحمة العمل.. وهو أنني على عتبات كشف طبي جديد قد يغير خارطة طب العيون إلى الأبد.. ويجعل الضرير يستعين بجسده بدلاً من عينيه.. ليشعر بألوان الضوء ويتمكن من تمييزها.

وبعد مرور أكثر من شهرين من الحضور اليومي.. والإلتزام التام مني ومن خالة (بدر) التي بذلت جهداً كبيراً لمساعدتي بإحضاره بنفسها يومياً.. وبعد أن طلبتُ منها إخفاء المعلومات كلها عن (غدير) كي لا نمنحها أملاً زائفاً.. بدأت ملامح النجاح تظهر.. حين بدأ (بدر) -ولأول مرة- يشعر بفارق الإضاءات الملونة التي تلمس بشرته.. وبدأ يسمي اللون الصحيح في كل مرة.. رغم أنه في واقع الأمر لا يعرف ما هو اللون الأزرق مثلاً.. لكنه يشعر به حين يلمس بشرته ضوء أزرق.

لقد استنزف هذا العمل اليومي المتواصل طاقتي كلها.. وطاقة الصبي المسكين الذي تمكن أيضاً من تمييز ضوء الشمعة.. وعرف أنه مبعثر ومتحرك من خلال تأثير ضوئها على جسده الذي ازداد حساسية تجاه الأضواء.. حينها فقط.. وحال عودة الأم من السفر.. طلبتُ منها زيارتي مع (بدر) للضرورة القصوى.. حيث قمتُ بوضعه تحت الاختبار.. ووضعتُ أمامه مجموعة من الكشافات الصغيرة الملونة.. فكان يشعر بالضوء.. ويعرف لونه أيضاً.. تماماً كالديدان التي تستجيب للضوء عن طريق جهازها العصبي.. حينها فقط.. عرفتُ أنني حققتُ معجزة.. وقمتُ بنقلة ضخمة في حياة (بدر).. وإن كنتُ لم أعد إليه بصره بعد.

ويبدو أن (بدر) لم يخبر والدته بشيء.. وهو ما لم أتوقعه من طفل في مثل سنه.. لكن أعتقد أن تأثير خالته عليه كان كبيراً بالفعل.. فقد أوصته كثيراً -بناء على تعليماتي- بالاحتفاظ بهذا السر إلى أن ترى والدته كل شيء بنفسها.. و.. كما توقعتُ.. صعقت (غدير) تماماً لما تراه.. ولم تصدق في بادئ الأمر.. حين شاهدتْ طفلها قادراً على تمييز كل الألوان.. حتى باتت تختبره بنفسها لتتأكد.. عندها فقط.. احتضنتهُ بقوة.. خاصة حين رأتهُ يسير ببطء تجاهها مسترشداً بكشاف اللون الأحمر الذي تحمله والذي كان موجهاً إليه.

لقد كانت هذه أسعد لحظات حياتي.. خاصة حين رأيتُ (غدير) تمد يدها لتصافحني بحرارة وتشكرني بعينين مغرورقتين بالدموع.. مدركة أنني صنعتُ معجزة بالفعل.. بعد أن نقلتُ طفلها إلى مرحلة جديدة هامة من دون أن يستخدم عينيه.. ولا أنكر أن عينيَّ اغرورقتا بالدموع أيضاً وقد أقسمتُ ألا أتوقف عن المحاولة.. سأنقل طفلها إلى مرحلة أقوى وأفضل؟!.. كيف؟!.. لن أتوقف عن البحث.. سأجد الطريق.. و.. لم أتمكن من كتم مشاعري أكثر.. لذا سألتها بشيء من الخجل:

-لا أعرف إن كان هذا الوقت المناسب.. لكني أشعر برغبة ملحة في الكلام.

نظرتْ إلي مستفهمة والدموع ما تزال تملأ عينيها.. لأقول:

-إنهُ عرض زواج.. هل تقبلين؟!.. أريد أن أكون بقربك إلى الأبد.. أريد أن أساعد (بدر) أكثر!!.

مسحتْ الدموع عن عينيها.. ووقفت أمامي وهي تنظر إليَّ بتأثر.. لتبتسم تدريجياً.. وتهز رأسها

موافقة.. فأيقنتُ حينها أنني صنعتُ المستحيل بالفعل.. لا.. لستُ أنا الذي صنعته.. بل الحب.. الحب فعل هذا كله!!.



جريمة أخلاقية!!

أعلمُ أن العنوان شديد الغرابة.. فهل توجد جرائم أخلاقية وجرائم غير أخلاقية؟!.. ربما ستتضحُ الصورة حين أسرد قصتي كاملة.. إنها بمثابة السر الذي ظللتُ أحتفظ به لمدة.. إلى أن قررتُ البوح أخيرا.. أحتاج إلى ذلك.. فالكتمان مرهق.. مرهق جداً!!.

لقد بدأتْ القصة منذ أكثر من عام.. حينَ التقيتُ بذلك الشاب.. لم يكن لقاءً بالمعنى المتعارف عليه.. بل كان عبر إحدى وسائل التواصل الاجتماعي.. حيث اعتدتُ على وضع صوري الشخصية كوني مغرمة بالتصوير كحال الكثير من الفتيات.. خاصة وأنني أعشق الأزياء والموضة وتسريحات الشعر الجديدة كحال كل فتاة أيضاً.. أتذكر أنني كنتُ أطلب من أصحاب الحسابات متابعتي عبر الرسائل الخاصة لزيادة المتابعين.. وهي رغبة غريزية لا نفهم سببها.. لكننا نسعى خلفها بكل قوتنا.

المهم أن الكثير من الحسابات قابلتْ طلبي بالموافقة.. خاصة حسابات الشباب بعد أن أدركوا مدى جمالي وأناقتي.. وهذا ما جعلهم يلهثون لكسب رضاي.. فكان بعضهم يدعم حسابي من دون مقابل.. وآخر يشترط الحصول على رقم هاتفي والتواصل معي.. لذا كنتُ أتجاهل كل رسائل الإعجاب هذه وإن كانت ترضي غروري كفتاة غير متزوجة في منتصف العشرينيات من العمر.

لكن.. كان هناك ذلك الشاب الذي لفتت صورتهُ الشخصية انتباهي كثيراً.. شاب وسيم للغاية مفتول العضلات.. يلتقط الكثير من الصور لنفسه ويعرضها في حسابه الخاص.. لم يكن كلامه يختلف عن الشباب الباقين.. إذ كان يطلب التعارف والتواصل هاتفياً إن أردتُ منه تقديم الدعم لحسابي.. فوافقت بسبب إعجابي الشديد بوسامته.

كانت هذه البداية.. حيثُ تواصلتُ معه عبر الرسائل الخاصة.. وعرفتُ عنه بعض الأمور الأساسية.. منها اسمه (عبد الرحمن).. وعمره الذي يقترب من الـ26.. ثم تبادلنا أرقام هواتفنا بعدها بفترة بسيطة.. لنتواصل هاتفياً بصورة يومية طوال الأسابيع التالية.. فعرفتُ عنه كل شيء تقريباً.. مما شجعني على مقابلته لأول مرة.. حيثُ جلسنا نتحدث لساعات في سيارته أمام البحر بالقرب من فندق (راديسون بلو) في منطقة (البدع).. إذ سألني يومها فجأة:

- لقد تحدثتُ كثيراً عن نفسي.. ووجدتُ أنكِ -في المقابل- تتجنبين الحديث عن تفاصيل حياتك؟!.. فأنا لا أعرف عنكِ سوى اسمك ومؤهلك العلمي.. أخبريني عن نفسك أكثر!!.

سكتُّ طويلاً.. ثم نظرتُ إليه بألم.. لأقول:

-لا يوجد ما قد يهمك.. إنني فتاة عادية.. أعيشُ مع شقيقي الأكبر.. إنه كل عائلتي بعد وفاة أمي وأبي في حادث مروري مفجع منذ سنوات!!.

لم يتوقع (عبد الرحمن) إجابتي هذه.. فأطرق برأسه أرضاً.. لأكمل بالألم ذاته:

-لكن شقيقي وغدٌ للأسف.. لقد استولى على إرث أبي وقام بتسجيل البيت باسمه بعد أن أجبرني على منحه توكيلاً للتصرف كما يشاء.. و....

توقفتُ عن الحديث.. لأنفجر باكية أمام نظراته المتسائلة.. وأخبره أنني تعرضتُ للضرب المبرح على يد شقيقي أكثر من مرة للأسف.. كما أنه أتلفَ جواز سفري وإثباتي الشخصي متعمداً كيلا أسافر إلى أي مكان.. عندها أمسك (عبد الرحمن) بيدي وهو يقول متأثراً:

-حبيبتي.. لم أتوقع أن تكون حياتك بهذه القسوة.. المعذرة لاستخدامي كلمة (حبيبتي).. أشعر.. أشعر أنني أحببتكِ.

مسحتُ دموعي وأنا أقول دون أن أنظر إليه:

- كيف؟!.. إنك لا تعرفني جيداً.. كنا نتحدث عبر الهاتف فقط.. ولم نلتقِ سوى اليوم.. ربما تشفق علي فحسب.

ردَّ بانفعال:

-لا.. لقد عرفتُ عنكِ ما يكفي لأحبك.. صدقيني.. الكثيرات من الفتيات يحلمنَ بالارتباط بي.. ولا أقولها تكبراً.. إنها الحقيقة.. إلا أنني لم أكترث لأيٍّ منهن.. ولم تخلب لبّي سواك!!.

مسحتُ دموعي وأنا أطلب منه أن يمنحني بعض الوقت.. فأنا أشعر بالانجذاب نحوه بالفعل.. لكن لم يصل هذا الانجذاب إلى الحب بعد.. لينتهي لقاؤنا الأول.. ويبدأ التقارب بيننا أكثر وأكثر.. حيثُ بات (عبد الرحمن) يتصل بي يومياً.. مما أشعرني بالضغط النفسي كون الحب من طرف واحد عذاب من وجهة نظري.. ليس فقط من جانب المحب.. بل من جانب الطرف الآخر أيضاً.. لستُ من اللاتي يشعرن بالسعادة حين تتعلق بهنَّ قلوب الشباب.. بل على العكس.. أشعر دوماً أن الحب مسؤولية.. وفي المقابل.. كنتُ أشعر أيضاً أنني أمام فرصة ذهبية.. أمام شاب يحبني بصدق كما بدا لي.. فلماذا لا أمنحه الفرصة؟!.. ربما أقع في حبه مع مرور الوقت.. للأسف فإن طبيعة حياتي وعلاقتي بشقيقي تمنعني من الخروج والالتقاء بالناس.. حتى في وظيفتي تجدني متحفظة جداً في تعاملي مع الجميع.. لذا ظللتُ غير متزوجة حتى هذه اللحظة.. ولم يتقدم لخطبتي أحد.. هذا ما قلتهُ له حرفياً.

استمرت علاقتنا بهذه الصورة لبضعة شهور.. حيث علم (عبد الرحمن) بكل مشاكلي الخاصة.. فكنتُ أتصل به أحياناً باكية بسبب سوء معاملة شقيقي.. وأحياناً لأتحدث وأفضفض وأخبره صراحة أنني أفكر كثيراً في الانتحار لكني أخشى ذلك.. إلى أن أخبرني ذات يوم أنه مستعدٌّ للتقدم رسمياً لطلب يدي.. هل شعرتُ بالسعادة؟!.. لا أعرف.. كانت مشاعر متضاربة من الصعب تحديدها.. وحين سألني عن سبب ترددي.. أخبرته عن السبب الحقيقي.. فقد فرض عليَّ شقيقي أن أحصل له على قرض من البنك.. ناهيكَ عن أنه يستولي دوماً على أكثر من نصف راتبي.. وزواجي سيحرمه هذا المبلغ.. لذا لا أظن أنه سيسمح لي بالزواج!!.. نعم.. هذه هي الحقيقة.. فشعر (عبد الرحمن) بغضب بالغ أمام كل هذا الظلم الذي يقع عليَّ.. وأكد لي أنه سيصبح زوجي ومسؤولاً عني.. ولن يتمكن حينها أحدٌ من مسّ شعرة مني.. وقالَ أنه على شقيقي هذا أن يذهب إلى الجحيم.

المشكلة أن المصائب لا تأتي فرادى.. فقد فاجأني شقيقي ذات يوم حين أخذ مني هاتفي كي يقوم بالتفتيش في اتصالاتي.. وهو ما يفعله في فترات متباعدة.. ليرى الرسائل كلها التي بيني وبين (عبد الرحمن) في وسائل التواصل الاجتماعي.. فضربني بقسوة بالغة تركتْ كدمات عديدة في جسدي ووجهي.. وأخذ مني هاتفي لبضعة أيام قبل أن يعيده إليَّ وهو يطلب مني ألا أخرج أبداً إلا للعمل.. كما طلب مني إغلاق حساباتي كلها في وسائل التواصل الاجتماعي!!.

وبالطبع أصيبَ (عبد الرحمن) بالجنون حين اتصلَ به شقيقي وهو يهدد ويتوعد ويخبره ألا يقترب مني أبداً وإلا قتله بنفسه.. لكني رغم ذلك.. تواصلتُ معه من مكان عملي بعد أن حصلتُ على هاتفي أخيراً.. لأخبره أنني أكره شقيقي هذا إلى درجة الجنون.. وأتمنى أن يأخذ لي أحدٌ حقي منه..

كانت هذه المرة الأولى التي نتطرق فيها إلى القتل.. إلى قتل شقيقي!!!.. بعد أن وجدنا أنها الوسيلة الوحيدة لإنقاذي.. فموته فقط سيصلح كل شيء.. سأرثُ البيت.. وسأستعيد المبلغ الذي أمرني باقتراضه من البنك.. إذ سمعتهُ ذات يوم يتحدث مع أحدهم عبر الهاتف ويخبره بما يوحي بأن المبلغ ما زال بحوزته ولم يصرفه بعد.

بالطبع لم يكن الأمر سهلاً.. لكن الفكرة ظلت تتردد في أذهاننا.. ففي كل مرة نتحدث فيها عمّا يعيق زواجنا.. وعن مصائب حياتي.. يأتي شقيقي في الواجهة.. وهكذا.. بدأتْ فكرة القتل تكبر في أذهاننا يوماً بعد يوم.. خاصة في ذهن (عبد الرحمن).. قبل أن يقرر الإقدام على تلك الخطوة فعلياً.. فرحنا نخطط معاً ونتأكد من عدم وجود أية ثغرات في الخطة التي رسمنا تفاصيلها بحذر شديد.. ثم نلغي الفكرة بأكملها كوننا لسنا قتلة بالفطرة.. لكننا نعود ونتذكر أن شقيقي هو العائق الأوحد في طريق سعادتنا.. إلى أن ترسخت الفكرة أخيراً في رأسيْنا.. هل شعرتُ بالأسف؟!.. هل شعرتُ بالشفقة؟!.. إطلاقاً.. فنحن نتحدث عن انتقام هنا.. وليس قتلاً من أجل المال.. انتقام وخلاص من هذا العذاب الذي أعيشه.

كانت الخطة بسيطة.. أن يذهب (عبد الرحمن) إلى الشاليه مع أفراد عائلته.. على أن يقضي بعض الوقت هناك.. ثم يرحل في وقت متأخر جداً من دون علم أحد.. ليستقل سيارة أجرة قادماً إلى بيتنا.. حيث سيتسلق السور.. ثم يدخل من إحدى النوافذ التي سأتركها له مفتوحة.. ليتجه إلى غرفة شقيقي.. وينهال عليه ضرباً انتقاماً لي.. ويطعنه حتى الموت.. على أن يهرب مباشرة عائداً إلى الشاليه.. ففي هذه الحالة لن يكون موضع اتهام.. إنه يملك حجة الغياب كما يقولون في الأفلام.. ناهيكَ عن أن رجال الشرطة لن يجدوا سبباً مقنعاً يدفعه ليرتكب جريمة القتل أصلاً.

و.. حان اليوم الموعود.. يوم تنفيذ الخطة.. وقد بلغ مني التوتر حداً جعلني أسير في غرفتي كالمعتوهة.. بعد أن أرسلتُ إلى (عبد الرحمن) صورة تتضمن عبارة تحفيزية عبر إحدى وسائل التواصل الاجتماعي.. وهي شفرة اتفقنا عليها مسبقاً.. تعني أنه يستطيع المجيء الآن لقتل شقيقي.. ولا أنكر أنني كدتُ أعدل عن الأمر بأكمله وأنا أنظر عبر النافذة بين لحظة وأخرى.. إلى أن شاهدتُ (عبد الرحمن) يتسلق السور.. لكنه للأسف قفزَ على سطل مرميٍّ بإهمال في ساحة البيت الداخلية.. مما أحدثَ ضجة جعلت قلبي يقفز بين ضلوعي.. و.. حدث ما كنتُ أخشاه.. إذ طرق أحدهم باب غرفتي.. فتنحنحتُ بقلب يكاد ينفجر توتراً وأنا أسأل بصوت متحشرج عن هوية الطارق.. ليرد شقيقي بسرعة:

-وهل هناك غيري؟!.

قالها وهو يدخل غرفتي من دون أن أمنحه الإذن بالدخول.. ثم:

-هل سمعتِ ذلك الصوت؟!.

اللعنة.. لا أعلم إن كان هذا سيفسد خطتنا.. لنرَ.. المهم أنني هززتُ رأسي نفياً وأنا أخبره أنني كنتُ أسمع مقطعاً موسيقياً في هاتفي فلم أنتبه.. فراح يؤكد لي أنه سمع صوتاً في ساحة البيت الداخلية.. إلا أنه ظن الأمر متعلقا بالقطط المشردة.. لم أجد الوقت لأعقب على كلامه.. إذ ظهر (عبد الرحمن) في غرفتي بعد أن قاده صوت شقيقي إلى مكاننا.. كان يحمل خنجراً مخيف المنظر.. من تلك الخناجر التي يحملها الجنود في الأفلام.. لكنه صُعق مما رأى.. وقال بذهول:

-يا إلهي.. إن شقيقكِ مصابٌ بالشلل.. لم.. لم تخبريني أنه مُقعد؟!.

قلتُ بجمود دون أن أنظر إلى شقيقي:

-نعم.. إنني أهتمُّ وأعتني به طوال الوقت.. ولم أعد أحتمل ذلك.

فردَّ بالذهول ذاتهُ:

-ماذا عن كلامك عنه؟!.. ماذا عن إيذائهِ لك وسرقته لأموالكِ؟!.. كيف سيفعل كل هذا وهو على كرسي متحرك طوال الوقت؟!.. كيف....

لم يجد الوقت ليكمل.. إذ أطلق عليه شقيقي النار وأصابهُ في ساقه.. ليقع أرضاً متأوهاً.. لا أعرف كيف تصابُ سيقانُ الناس في الأفلام ونراهم يسيرون رغم ذلك.. هذا مستحيل مع كمية الدماء التي سالت من (عبد الرحمن).. ووجدتني أقولُ بحقد:

- نعم.. كذبتُ عليك بالطبع أيها الأحمق.. كنتُ أريد أن أستدرجك إلى هنا.. فشقيقي مُقعد بسببك أنت.. لقد كان مع والديّ في حادث السير الذي أودى بحياتهما.. الحادث الذي تسببتَ أنت به منذ سنتين.. كنتُ أنا أيضاً معهم في السيارة وقد تعرضتُ لكسور ولرضوض عديدة.. وكل الصور التي أرسلتُها لك كانت تتعلق بإصاباتي من الحادث.. وليستْ بسبب شقيقي كما أوهمتكَ.. لقد دمرتَ حياتنا يا (عبد الرحمن).. والآن ستدفع الثمن!!.

لم يردْ بكلمة واحدة.. كان الموقف أقوى من أن يصدقه.. ويبدو أن شقيقي أيضاً شعر بالراحة لأنَّ الحقيقة وصلت كاملة إلى ذلك الوغد.. فأطلق عليه رصاصة أخرى في صدره لينهي حياته.. وبالطبع كان لا بد لهذه الضجة من أن تجذب الانتباه.. فقد هرعت الخادمة من غرفتها في الطابق الأرضي كي تفهم ما يحدث.. لترى (عبد الرحمن) يلفظ أنفاسه الأخيرة والدماء تسيل منه.. لأبدأ أنا أيضاً بالبكاء.. كون الموقف ليس معتاداً بالنسبة لفتاة مثلي رغم استعدادي النفسي لهذا الانتقام!!.

أعتقدُ أن القصة واضحة لا تحتاج الكثير من الشرح.. فقد أفلتَ هذا اللعين من القضاء كونه ارتكبَ حادثاً غير مقصود.. لأنه كان يعبث في هاتفه وهو يقود سيارته.. لقد رأيتهُ بنفسي قبل ارتكابه للحادث بلحظات.. لكنه أنكرَ ذلك.. وادعى أنه لم ينتبه فحسب حين اصطدمَ بسيارة والدي وتسببَ في انقلابها أكثر من مرة.. لينتهي الأمر بمأساة عائلية فقدتُ على إثرها والديّ.. وفقدَ شقيقي صحتهُ بعد إصابته بالشلل.. فكان هذا انتقامنا منه.. والذي تحققَ بنجاح لحسن الحظ.

ويجب أن أعترف هنا أن الانتقام لم يكن بالأمر اليسير أبداً.. بعد أن فكرتُ كثيراً مع شقيقي -وطوال سنتين- أن نقتصَّ من هذا الوغد.. فلا يمكن أن يعيش حياته سعيداً وكأن شيئاً لم يكن.. ويكتفي فقط بدفع غرامة مالية وبتحمّل عقوبات سخيفة جراء الحادث.. في حين قضى تماماً على أسرتنا.

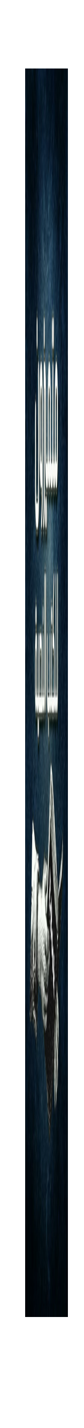
لقد تواصلتُ معه عبر حسابه الشخصي في إحدى وسائل التواصل الاجتماعي لأطلب منه دعم حسابي الشخصي كما أشرتُ في بداية قصتي.. إذ كنتُ على يقين أنه لن يتذكر ملامحي كونهُ رآني وقت الحادث فقط وأنا في أسوأ حالاتي.. بعد أن أصبتُ يومها بكدمات كثيرة وبجرح غائر في رأسي جعل الدماء تنزف منه بغزارة وتغطي وجهي.. ويبدو أن جمالي أثار اهتمامه كما توقعتُ.. لتبدأ بيننا علاقة كذبتُ خلالها وأوهمته عبرها أن شقيقي دمَّر حياتي.. لم أكن واثقة أنني سأستدرجه إلى محاولة قتل شقيقي.. لكني نجحت.. الإلحاح الشديد والمستمر يأتي دوماً بنتيجة.. خاصة لو كان

لنصرة فتاة مسكينة مظلومة كما تصوَّر (عبد الرحمن).

أما المسدس.. فقد حصلتُ عليه بشكل غير قانوني عبر شبكة (الإنترنت) بعد بحث مضنٍ كي يستخدمه شقيقي في الانتقام.. لنخبر رجال الشرطة بعد ذلك أنني فوجئتُ بوجود شخصٍ غريب في بيتنا وهو يطلب من شقيقي تسليمه كل ما بحوزتنا من مال.. ولم يكن الأمر يحتاج إلى ذكاء لأعرف أنه لص.. إلا أنني تصرفتُ بسرعة حماية لشقيقي الذي أحبهُ أكثر من أي شيء في العالم.. فأمسكتُ بتحفة ثقيلة موجودة في غرفة المعيشة.. وتوجهتُ بهدوء خلف (عبد الرحمن) لأضربه على رأسه.. ليسقط منه المسدس ويقع بالقرب من شقيقي الذي التقطهُ وأطلق منهُ رصاصتين.. بعد أن نهضَ اللص متأوهاً وحاول الهجوم عليَّ ليحتمي بجسدي.. كما وضعنا في فم (عبد الرحمن) كمية كبيرة من الخمر الذي حصلنا عليه بطريقة غير قانونية أيضاً بطبيعة الحال.. لنوهم رجال الشرطة أنه مجرد شاب مخمور اقتحمَ بيتنا وأراد ارتكاب جريمته.

ولم أنسَ قبل دخول (عبد الرحمن) إلى بيتنا أن أطلب منه محو رسائلنا الهاتفية كلها وتاريخ محادثاتنا.. كي لا يكتشف أحد وجود تواصل بيننا إذا نجح في قتل شقيقي كما أوهمته.. لكني رغم ذلك.. أخرجتُ هاتفه من جيبه في لحظة احتضاره.. وأخفيتهُ عن الجميع للمزيد من الحرص.. و.. لم أشعر بالراحة إلا حين رحلتْ سيارة الإسعاف ورجال الشرطة.. ترى.. هل سيكتشفون أن (عبد الرحمن) قتل والديّ وأصاب شقيقي بالشلل منذ سنتين في حادث السير إياه؟!.. هل ستُثار حولنا الشكوك؟!.. لا يهم.. لن يجدوا شيئاً ضدنا.. لقد اقتحم بيتنا.. ودافعَ شقيقي عني وعن نفسه.. هذا ما ستبدو عليه الأمور ولن يمكن لأحد إثبات عكس ذلك.. الآن فقط أشعر بالراحة.. إنها جريمة بالفعل.. لكنها جريمة أخلاقية!!.. لأننا حققنا فيها انتقامنا.. الانتقام الذي عجزنا عن الحصول عليه بواسطة القانون.

(تم الكتاب بحمد الله)



Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

فهرس المحتويات:

الملاحظات

[←1]

(1) (التنَمّر) هو التحرّش والإيذاء المتكرر بكل أشكاله.. نفسي أو بدني.. وهي مشكلة وظاهرة خطيرة تعانيها جميع المجتمعات تقريباً.. خصوصاً بين الطلبة في المدارس.. وهناك أسباب كثيرة لهذا السلوك العدواني.. منها سوء معاملة العائلة للطفل أو المراهق.. وشعوره الدائم بالوحدة وبضعف الشخصية.. مما يزيد عنده الإحساس بالغضب.. فيلجأ إلى الهيمنة تجاه من هم أضعف منه للتنفيس عن آلامه.

[←2]

(2) يتحدث هنا عن ظاهرة (باريدوليا) (Pareidolia).. والواقع أنه لا توجد ترجمة عربية واضحة لهذا المصطلح.. علما بأن اللفظة مشتقة من الكلمة اليونانية (Para) وتعني (بجانب) و(Eidolon) وتعني (الشكل).. وهي ظاهرة نفسية موجودة عند كل إنسان.. حيث يستجيب فيها العقل لمحفّز يجعل الأشكال العشوائية المبهة متلائمة مع الصور الموجودة في وعيه.. كأن ترى في الغيوم أو النجوم أو حتى في تشكيل الصخور أشكالا لها معنى.. أو رؤية لفظ الجلالة (الله) على جسد سمكة مثلاً.. وقد يصل الأمر إلى سماع الأصوات أيضاً.. كأن نسمع ضجيجاً لا معنى له.. لكن نظن أننا نلتقط منه كلمات معينة.. وهذه الأشياء العشوائية تختلف من شخص لآخر بناء على تجارب كل منا في الحياة.. ويرى العالم الشهير (كارل سيجان) أن هذه الظاهرة نشأت مع تطور العقل البشري لتساعدنا على تمييز الأشياء بسرعة.

[←3]

(3) يجب التطرق هنا إلى ما قاله الدكتور (سبيروس ميكالاكيس) (Spiros Michalakis).. وهو عالم فيزياء والمستشار العلمي لشركة (مارفل) (Marvel) الشهيرة.. حيث تطرق إلى أن هناك إمكانية بالفعل لصنع ذرات أصغر حجماً لو كنا نمتلك التكنولوجيا اللازمة.. مما يعني أنه من الممكن جداً تقليص حجم الأجسام المادية في المستقبل.. كما ذكر أننا لو قمنا بتقليص حجم الإنسان.. فإن قوته لن تنقص كثيراً قياساً إلى حجمه.. وسيصبح كالنملة التي تستطيع حمل ما يعادل وزنها 50 مرة على الأقل.. وهذا قياساً إلى النظرية العلمية التي تقول أننا لو قلصنا من حجم جسم ما.. فإن كثافته ستظل كما هي.

[←4]

(4) حقيقة بالطبع.

[←5]

(5) الموجة هي الاضطراب الذي يحدث في الضوء.. فلكل ضوء (مجال كهرومغناطيسي) (Electromagnetic field) خاص به ينشأ بسبب الجسيمات المشحونة التي تنبعث منه.. و(الطول الموجي) هو المسافة التي تفصل بين موجات الرسم البياني.. قمة مع قمة.. أو قاع مع قاع.